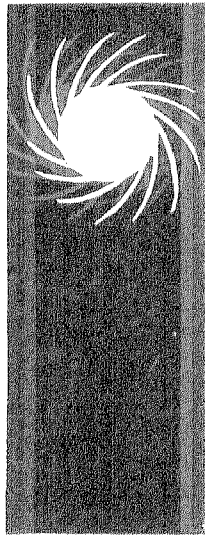
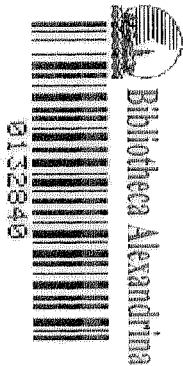


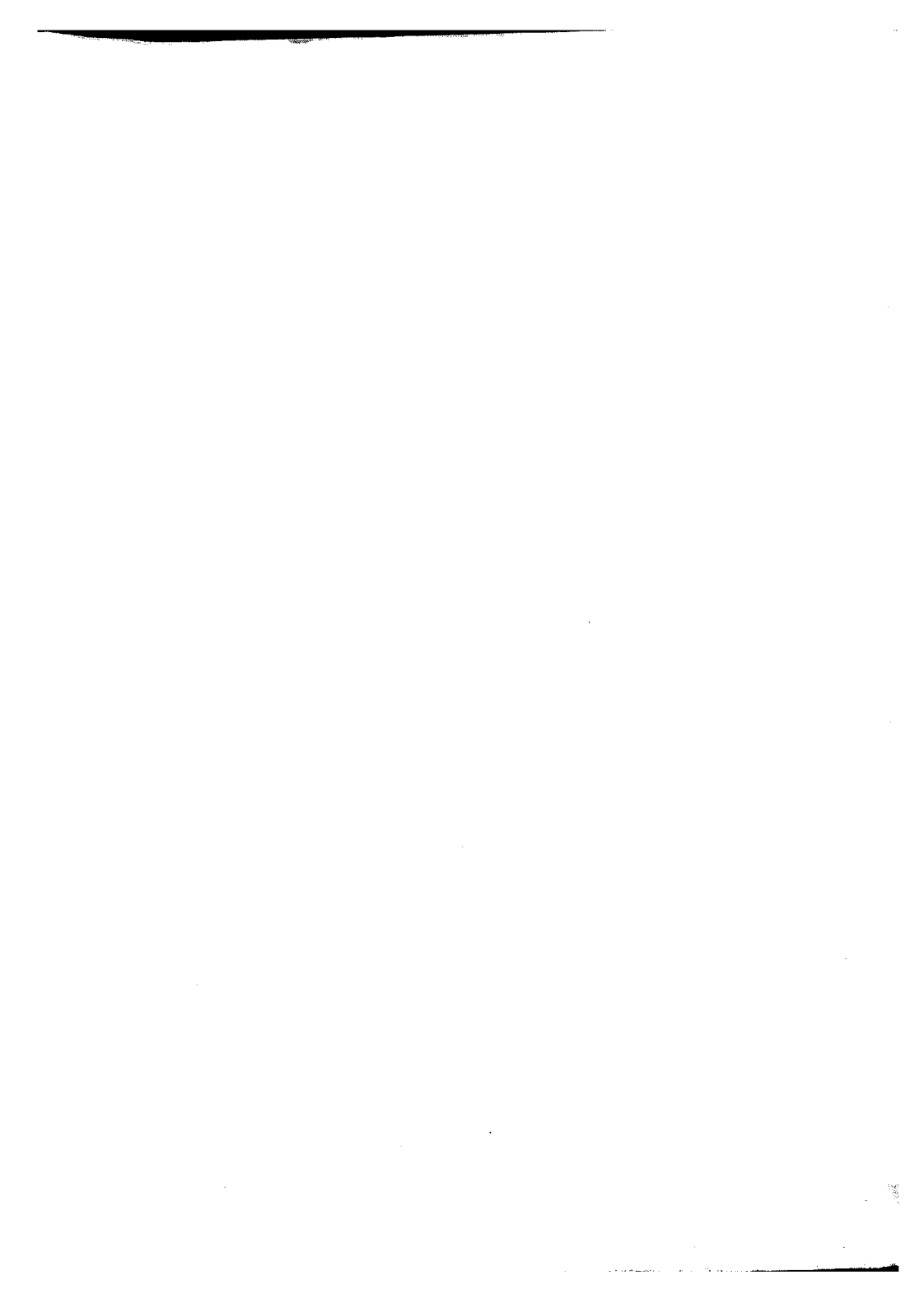
الأعلام



٢٠

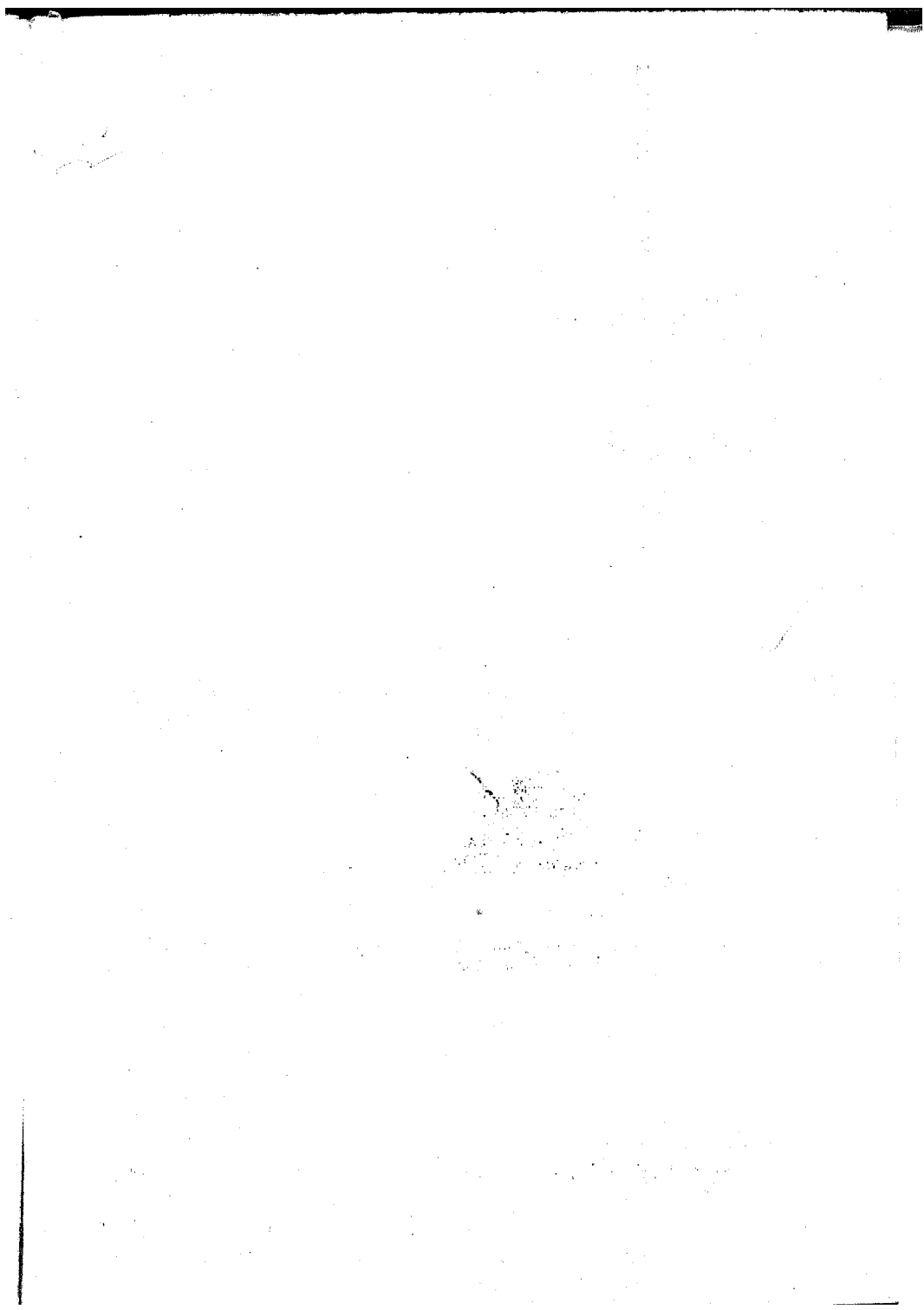
قائمتاى المحمودى
عبد الرحمن محمود عبد التواب





مَدَامَا

۸۷۳۳



المركز القومي للكتاب الاسكندرية
رقم التسجيل: ١١٢.٤
رقم الكتاب: ٩٦٢.٥٢٥
تاريخ التسجيل: ١٩٧٨

٩٦٢

الإعلام

٢٠

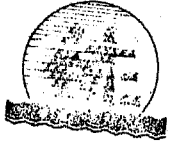
٩٦٢.٥٢٥

٥٩٢

ع ٤٥
٩

فايتباي المحمودى

عبد الرحمن محمود عبد التواب

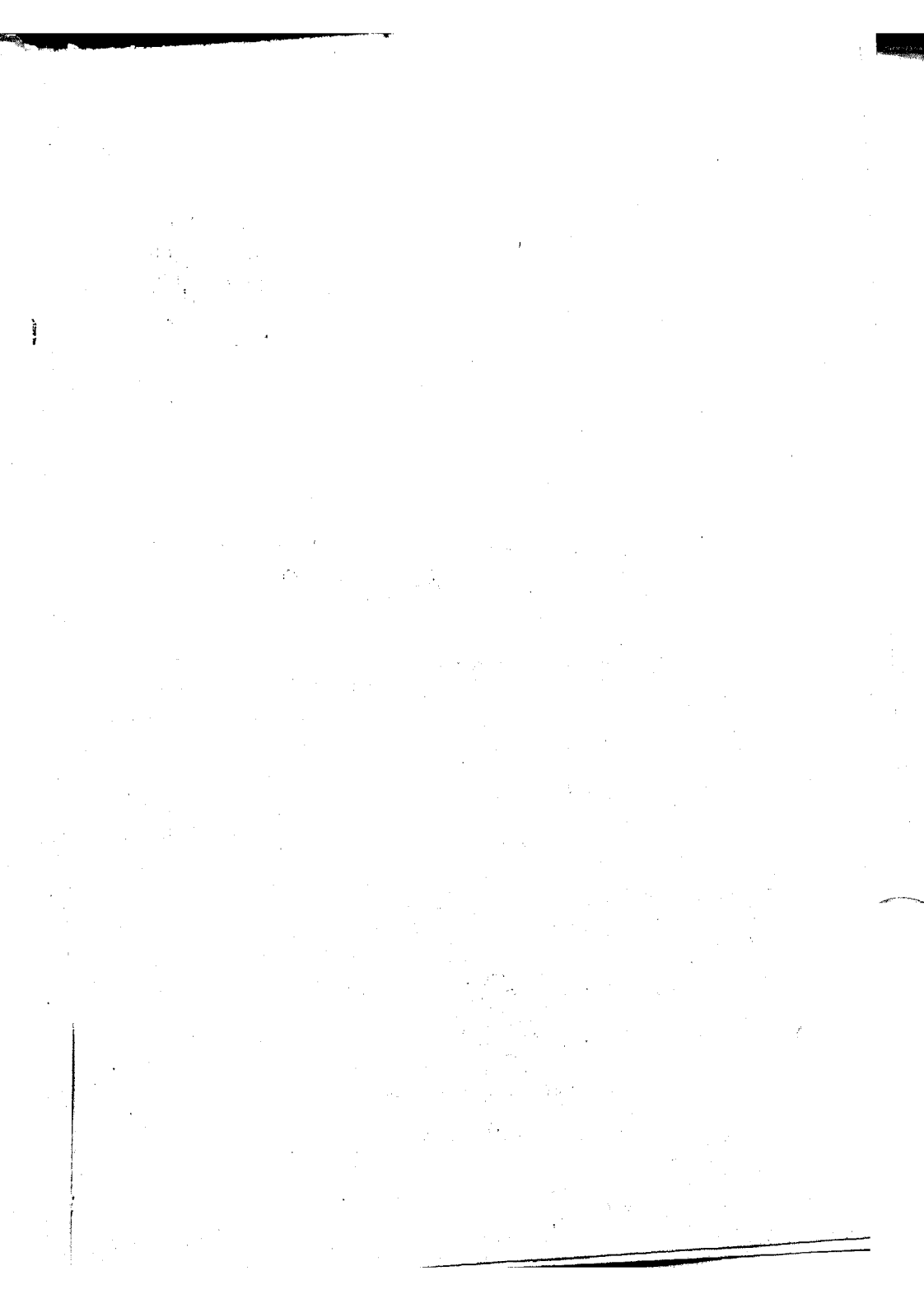


General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
General Organization of the Alexandria Library



الجمعية المصرية للمساهمة للكتاب

١٩٧٨



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

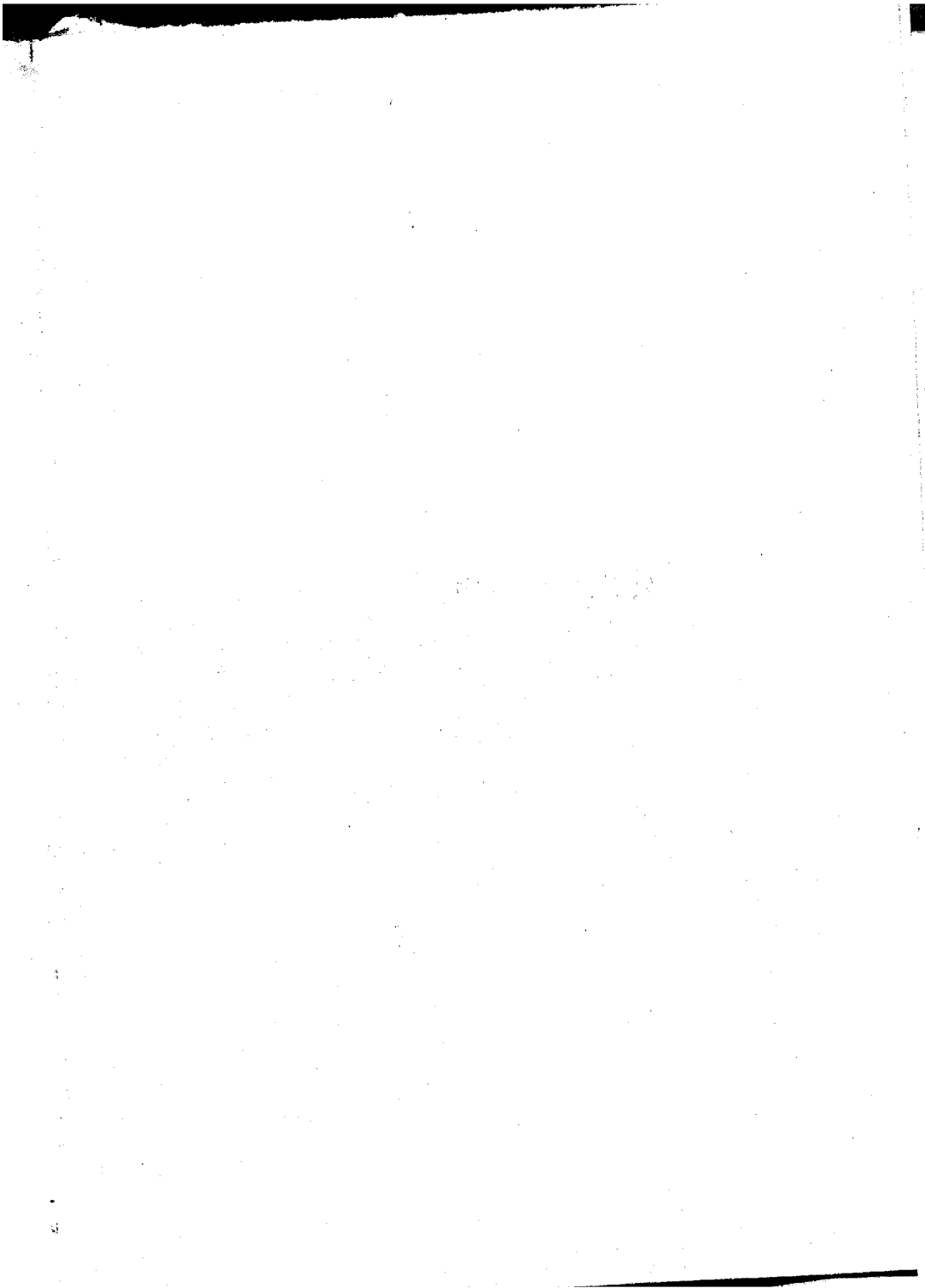
ترجع صلتى بالسلطان المملوكى قايتباى أعظم سلاطين المماليك الجراكسة الى ربع قرن مضى من الزمان ، عندما كنت منكبا على دراسة تاريخ دولة المماليك الجراكسة لأتبين علاقاتهم مع العثمانيين ، وهى العلاقات التى انتهت بالصدام الحتمى فى عهد السلطان العثمانى سليم الأول واختفاء دولة المماليك من مسرح التاريخ المصرى ، وذلك حتى أستطيع كتابة تاريخ حملة سليم ، ثم كان الانصراف عن ذلك العمل ، - وان ظل فى دائرة الآمال - الى دراسة الآثار فعشت بكليتى مع الآثار الاسلامية على مدى عصورها التاريخية وبهرنى منها آثار الشراكسة وهالنى ابتعاد الكثيرين عن الكتابة عنها فيما مضى . وكانت آثار قايتباى تشدنى ولا أستطيع أن أخفى ما كان يتملكنى من نشوة كلما آنست فى رحابها جمالا . وعقدت العزم بصدق على دراسة آثار الشراكسة دراسة جادة ولازمنى التوفيق فى معظم الأحيان على الرغم مما صادفنى من عقبات الى أن انتهت بحمد

الله من دراستها ، ولم يبق سوى اللغات الأخيرة حتى ترى
النور . ثم صحت العزيمة على التعريف بالمعظم قايتباي أكبر
البنائين في التاريخ المصري الوسيط والذي لا يدانيه في ذلك
سوى الناصر محمد بن قلاوون أكبر البنائين من سلاطين المماليك
البحرية ، وكان لى في سلسلة أعلام العرب أكبر فرصة لتحقيق
تلك الأمنية ، فاستخرت الله وسرت على بركته ، ودونت في
الصفحات التالية ما عن لى من سيرة ذلك السلطان ، وإن كانت
ترجمته في الواقع تحتل عدة مجلدات كما ذكر السخاوى
المؤرخ ، فإن وفقت فيما قصدت فمن فضل الله ، وإن جازت
الصواب فانى أرجو المغفرة ، والله يهدى الى سواء السبيل . ،،

عبد الرحمن محمود عبد التواب

الفصل الأول

السلطان



نشأته وسلطنته :

جر كسى الجنس ، جلبه الى مصر من بلاد الجركس الخواجا (١) محمود بن رستم سنة ٨٣٩ هـ فعرف بالمحمودى نسبة اليه ، ثم اشتراه الملك الأشرف برسباى هو وعدة ممالك صغار بخمسين ديناراً لكل منهم ، وأنزل بالطباق (٢) من القلعة ، وصار من الممالك الكتائية ، واستمر كتايا مدة سلطنة الأشرف برسباى وابنه الملك العزيز يوسف ، ولما عزل العزيز يوسف اشتراه الظاهر جقمق من بيت المال هو وعدة ممالك كتائية واستمر فى رق الظاهر جقمق حتى أعتقه وصار جمدارا (٣) ثم خاصكيا (٤) ثم دوادارا (٥) . وفى سنة ٨٦٢ هـ وأنعم عليه

-
- (١) الخواجا : المعلم ومن معانيه الكاتب والتاجر
 - (٢) الطباق : جمع طبقة ، وهى مكان سكن الممالك بالقلمة .
 - (٣) الجمدار : هو الذى يلبس السلطان أو الأمير ثيابه .
 - (٤) الخاصكى : من حاشية السلطان ، وكان يتمتع بمكانة كبيرة .
 - (٥) الدوادار : هو الذى يبلغ الرسائل عن السلطان ، ويقدم القصص اليه .

السلطان الأشرف اينال بامرة عشرة (٦) ، وظل أمير عشرة حتى عينه الظاهر خشمقدم أمير طليخاناه (٧) شاد الشرايخاناه (٨) . وفي عهد السلطان الظاهر بلباي عين رأس نوية النوب (٩) ، ولما ولي الظاهر تمربغا السلطنة عينه أتابكا (١٠) للعسكر ، فلما ثار خايربك الذي تسلطن وعرف عند العوام ، باسم سلطان (١١) ليلة على الظاهر تمربغا اتفق العسكر على سلطنة الأتابك قايتباي ، وكان القائم بهذا الأمر طائفة المماليك الاينالية والخشقدمية (١٢) . ولما هزم خاير بك ملك الأمير يشبك الدوادار وجماعة من العسكر باب السلسلة بالقلعة وقبضوا على خاير بك وثار العسكر على الظاهر تمربغا ، وفي تلك الأثناء طلع الأتابك قايتباي الى باب السلسلة وجلس بالمقعد وتشاور مع العسكر في أمر الظاهر تمربغا ، واجتمعت كلمتهم على خلع الظاهر تمربغا من السلطنة واستدعوا الخليفة العباسي أمير المؤمنين المستجد بالله يوسف وقضاة القضاة الأربعة ولي الدين الأسيوطي الشافعي ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفي ، وحسام الدين بن حريز المالكي

- (٦) امرة عشرة : من يكون اميرا على عشرة فرسان .
(٧) امير طليخاناه : من له اربعون فرسا .
(٨) شاد الشرايخاناه : هو المتحدث في امور الشرايخاناه السلطانية .
(٩) واس نوية النوب : هو الحاكم على الممالك السلطانية .
(١٠) اتابك العسكر : المقصود بها ابو العسكر .
(١١) اطلقت هذه التسمية على الثائر خاير بك لان سلطنته لم تدم سوى ليلة واحدة .
(١٢) نسبة للسلطانين الملوكيين اينال وخشمقدم .

وعز الدين الحنبلي ، فحضر الجميع ، كما حضر جماعة من الأمراء . وبعد أن اكتمل المجلس أعدت صورة شرعية بخلع الظاهر تمريناً من السلطنة فخلعه الخليفة في الحال وبائع الأتابكي قايتباي سلطاناً ، وتلقب بالملك الأشرف ، وأحضرت العمامة السوداء والجببة السوداء بالطرز الذهب والسيف البداوي وهي شعار الملك ، وتمنع قايتباي وبكى عندما أرادوا أن يفيضوا عليه شعار الملك ، ولكنهم ألبسوه ذلك الشعار غصبا ، ثم قدمت إليه فرس النوبة وحمل الأمير جاني بك قلقسيز باذن منه الصنجق السلطاني (١٣) على رأسه عوضاً عن القبة والطير (١٤) لفقدتهما من الزرد خاناه (١٥) ، ثم سار السلطان الجديد وأمامه الأمراء وركب الخليفة عن يمينه حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض وتم ذلك كله في السادس من رجب عام ٨٧٢ هـ ، وكان عمره أربعة وخمسين عاماً كما سمع منه ، وصار الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر والحادي والأربعين من ملوك الترك وأولادهم ، ودخل الأمير يشبك الدوادار وتمراز الشمسي على الظاهر تمريناً سلطانهم السابق

(١٣) الصنجق : العلم

(١٤) القبة والطير : ويعبر عنها بال مظلة وبالجتز ، وهي قبة من حرير أصفر

مركبش باللذهب أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب .

(١٥) الزردخاناه : بيت السلاح .

واقاموه من فوق مزبته وادخلوه فاعة البحرة بالقلعة وهو في غاية الاكرام واخذوا منه النجاة (١٦) والترس والدواء وهي من علامات السلطنة كذلك واحضروها لسلطانهم الجديد الأشرف فايتباى ووضعوها بين يديه ، ثم ضربت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه في القاهرة ، وارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام . ولم ينفق السلطان على العسكر نفقة البيعة التي كان ينفقها كل سلطان بعد توليته الحكم وذلك تنفيذاً لما اشترطه بأنه لن ينفق نفقة للبيعة قبل أن يقبل السلطنة ، ويبدو أن ذلك الاجراء ما اتخذ الا لما كانت تعانیه الدولة من سوء في أحوالها الاقتصادية ، وحتى يتم له دراسة أحوالها ، على أن ذلك لم يكن سوى اجراء مؤقت اذ أن السلطان ما لبث أن رضهم عن ذلك بعد فترة كما سيأتى تفصيل ذلك .

وبعد أن استتب الأمر للسلطان أخذ يرتب أمور الدولة ينظمها من تعيين وعزل للأمرء ، وسار في ذلك على خطى السلاطين السابقين عليه ، متبعاً في ذلك نظام الدولة وقاموسها ولم يخالف ذلك النظام الا فيما ندر كما سيأتى . وظل السلطان يقوم بأعباء الدولة في عزم وثبات وقد واجه حروب شاه سوار أمير دلفادر وحسن الطويل صاحب العراقين وسلاطين آل عثمان وثورات العربان وعصيان بعض أقاليم السلطنة ولم يفت ذلك في

(١٦) النجاة : خنجر مقوس شبه السيف القصير .

عضده . ولكن ثورات الجلبان (١٧) قد سببت له الكثير من المضايقات مما دفعه الى التهديد أكثر من مرة بترك السلطنة حتى وضع ذلك التهديد موضع التنفيذ في الرابع من ربيع الآخر سنة ٨٩٤ هـ عندما جلس على الدكة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل وجمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، ولما اكتمل المجلس عرض عليهم السلطان النفقة التي يطلبها الممالك وما وصلت اليه حال الخزانة ، وثقوث الأموال بها والتي صرفت على الحروب، وطلب من الأمراء أن يختاروا من يولونه السلطنة بدلا منه وأحضر فرس النوبة وأحضر القبة والطير ثم قام وقال للقضاة اشهدوا على أنني قد خلعت نفسي ، وتوجه الى قاعة البحرة فمنعه القضاة حتى أن قاضي القضاة المالكى أظهر أسفه على ما حدث وأخذ يتمرغ في التراب ، وسارت الرسل بين السلطان والجلبان وتم الاتفاق على أن ينفق السلطان على الجلبان خمسين دينارا لكل منهم أربعون معجلا وعشرة مؤجلا ، وأن ينفق على القرائنة خمسة وعشرين دينارا لكل منهم ، ثم أرسل السلطان من أحضر الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز من مسكنه بالحوش السلطاني ليجدد له البيعة ثانية بحضرة القضاة الأربعة ، فكانت مدة سلطنته الأولى الى أن خلع نفسه اثنين وعشرين عاما الا ثلاثة أشهر ، وانقضى ذلك اليوم العصب .

(١٧) الجلبان : احدى فرق الجيش المملوكي ، والمقصود بها الممالك الذين كان يشتريهم السلطان لنفسه .

زوجات السلطان وذريته وأقاربه :

تزوج قايتباي من خوند (١٨) فاطمة بنت الملائي بن خاص بك ، وكانت مقيمة في داره بسوق الغنم ، ثم صعدت إلى القلعة في شوال سنة ٨٧٢ بعد سلطنته ، وقد أحاط بمحفتها (١٩) نساء الأمراء وأرباب الدولة وأعيان الخدام . حجت خوند فاطمة في سنة ٨٧٩ هـ وكان يوم خروجها إلى السفر للحجاز يوما مشهودا ، وحج معها أخت السلطان ، وخرج أمام محفتها أرباب الدولة وكتاب السر (٢٠) وناظر الجيش (٢١) وناظر الخاص (٢٢) وغيرهم من المباشرين ومثى الزمام (٢٣) ومقدم المماليك (٢٤) وأعيان الخدام وبأيديهم العصي وأمامها أربعة من الحداة بينهم ابراهيم بن الجندي المغني ، وكان المرافق لها في سفرها والدها وبرسباي المحمودي الخازن دار . وعادت خوند فاطمة بعد انتهاء مشاعر الحج في المحرم عام ٨٨٠ هـ واستقبلها الأمراء حتى قضاء القضاة الذين ترجلوا لها وهي في المحفة ، ولاقاها المغاني

(١٨) خوند : لفظ تركي معناه السيد أو الأمير ، ويخاطب به الذكور والانات على السواء .

(١٩) المحفة : مثل اليهودج .

(٢٠) كتاب السر : صاحب ديوان الانشاء .

(٢١) ناظر الجيش : المتحدث في أحوال الجيش .

(٢٢) ناظر الخاص : المتحدث في خاص أحوال السلطان .

(٢٣) الزمام : الموكل بحفظ الحرم .

(٢٤) مقدم المماليك : المتحدث في شأن المماليك .

بالطارات ، ولما صعدت القلعة رفع على رأسها القبة والطيور
ونثرت عليها خفافيف الذهب والفضة ، وقدمت الهدايا اليها من
أرباب الدولة وأعيان الناس . ولم يتزوج السلطان من أحد
غيرها ، ولم تكن له سوى سرية واحدة هي خوند أصل باي
والدة ابنه محمد الذي تسلطن بعده .

أما أولاد السلطان من فاطمة فقد أنجب منها ابنه أحمد وهو
أول أولاده منها ومات صغيرا في رمضان سنة ٨٧٣ هـ ، كما
أنجب منها بنتا اسمها ست الجراكسة وماتت صغيرة هي
الأخرى .

أما أولاده من سريته خوند أصلباي فقد أنجب منها ابنه
محمد في شوال عام ٨٨٧ هـ وهو الذي تسلطن بعده . وكان
ختان ابنه محمد من أيام القاهرة المعدودة ، وقد احتفل بختانه
في رجب سنة ٨٩٥ في القلعة وظل الاحتفال سبعة أيام سويا ،
اجتمع فيه سائر المغاني وأمر السلطان أن تزين القاهرة فرينت
حتى زين داخل الأسواق ، وخرج الناس في فرحهم عن الحد ،
وساعدهم على ذلك عدم الخوف من أذى المماليك اذ كانوا في
الحرب خارج الديار ، وقدم للسلطان من الهدايا ما لا يمكن
حصره من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك
مما يزيد على خمسين ألف دينار ، وأهدى المقر الشهابي أحمد
ابن العيني من جملة ما أهدى طشت وأبريق ذهب زتته نحو

ستائة مثقال يرسم الختان ، وختن مع ابن السلطان كثير من
أولاد الأمراء والخاصية ، وكانوا زيادة عن أربعين ولدا ، وأمر
السلطان لكل صبي بكسوة على قدر مقام أبيه . وفي العشرين
من رجب اجتمع الأمراء المباشرون وأعيان الناس بالحوش
السلطاني وركب ابن السلطان من قاعة البحرة وسار أمامه الأمراء
والخاصية حتى قاضى القضاة الحنفى ناصر الدين بن الاخيمى
وسائر أعيان المباشرين والخدام وأمسك بلجام الفرس الأمير
أقبردى الدوادر والشهابى أحمد بن العينى ، واستمر ابن
السلطان فى ذلك الموكب الى باب الستارة (٢٥) والسلطان
جالس فى المقعد ينظر اليه وفرشت تحت حافر فرسه الشقق
الحرير ، وثر على رأسه خفايف الذهب والفضة ، ولاقاه المغانى
فنزله عن فرسه بباب الستارة ودخل قاعة البيسرية (٢٦) حيث
كان الختان . ونال المزين من الهدايا خمسة آلاف دينار ، وبعد
الختان نزل أبناء الأمراء الى دورهم وشقوا القاهرة فى موكب
حافل ، ورسم السلطان للقضاة الأربعة بأن يركبوا أمامهم
فصدعوا للأمر .

وفى ذى القعدة سنة ٨٩٥ هـ شرع السلطان فى بناء دار
لابنه على بركة الفيل ليسكن فيها كآبناء السلاطين ، ونزل ابنه

(٢٥) باب الستارة : أحد الأيواب بالقلمة . وكان يؤدى الى مكان إقامة
الحرير .

(٢٦) البيسرية : من قاعات القلمة .

اليها لأول مرة في صفر سنة ٨٩٩ فإقام بها ساعة ثم عاد الى القلعة، وكان هذا أول ظهوره للناس ونزوله الى المدينة وكان معه أقيردى الدوادار والجم الغفير من الجند ، وأفق السلطان بهذه المناسبة على الجند لكل خمسين دينارا وسموها نفقة نزول ابن السلطان ، ويبدو أن السلطان ما فعل ذلك الا لكي يظهر ثراء الدولة لرسول السلطان العثماني الذي كان موجودا آنذاك .

وعند فتح سد بركة الأربكية في ذى الحجة سنة ٨٩٩ هـ عزم الأمير أربك على ابن السلطان لحضور الاحتفال ، فنزل من القلعة وبات عنده في القصر المطل على البركة ، وقدم له هدية ما بين مماليك وخبول وقماش ، ثم عاد الى القلعة في اليوم التالي .

وعلى الرغم من أن محمدا هذا هو ابن السلطان الوحيد فقد غضب عليه في رجب سنة ٩٠٠ هـ وألبسه أردأ الثياب وأنزله الى طبقة الميدان ، ولم ينعم عليه بامرة عشرة في أيامه قط ، وطلب من المشرف عليه أن يأمره بكنس الطبقة ويقعد على السفرة آخر المماليك وان عصى يضربه ويعامله معاملة المماليك الجلبان ، فأقام في الطبقة أياما حتى طلع الأتابكي أربك وشنم فيه ، وظل يمقتة السلطان حتى مات .

ولما مرض السلطان مرض موته صعد الأتابكي تمراز الى القلعة ودخل عليه في المبيت وكان يحتضر ، وعرض عليه فساد الأحوال وأن الأمر يستدعي سلطنة ابنه ، وطلب اليه الموافقة

ولكنه لم يرد جوابا فأخذه ونزل من باب السلسلة (٢٧) ليتخذ اجراءات اعلانه سلطانا خلفا لوالده ، ويبدو أن السلطان بالاضافة الى غضبه من تصرفات ابنه فانه كان مشفقاً عليه مما سيواجهه من تصرفات المماليك الجلبان الذين ضاق أبوه ذرعا من تصرفاتهم على الرغم من صبره وحنكته . كان السلطان ولا شك بعيد النظر في عدم الموافقة على تولية ابنه السلطنة فقد أثبتت الأيام عدم صلاحيته لهذا المنصب الخطير فكان من أمره أن قتل شر قتله . هذا ولم يغب عن ناظري السلطان ما كان يحل بأبناء السلاطين الصغار الذين يتولون السلطنة خلفا لآبائهم من عزل وتشريد وقتل لا لسبب سوى النزاع على السلطنة بين الأمراء تحقيقاً لمطامعهم الشخصية .

لم يكن للسلطان أقارب بمصر سوى أخته جان تين التي وصلت من بلاد جركس في رجب سنة ٨٧٧ هـ ومعها ابنها وعدة نساء جراكسة . وفي شعبان سنة ٨٨٤ هـ أحضر قانصوه الإلفي عندما سافر الى بلاد جركس بعض أقارب السلطان . وفي شعبان سنة ٩٠٠ هـ وصل القاهرة شخص جركسى جاوز الستين من عمره ومعه اثنان من أولاده وهما شابان يافعان ، وذكر أن الشيخ أخو السلطان وأنه كان مقيماً في بلاد الفرنج ، فلما حضر اعتنق الاسلام وختن هو وأولاده وسمى قيت وسمى أولاده ، جانما

(٢٧) باب السلسلة : من ابواب التلمة .

وجانى بك ورتب لهم المرتبات وأنزلهم فى الطبقة وصاروا من
جملة المالك السلطانية *

السلطان والخلافة العباسية :

لم أعر فى المراجع المعاصرة على تقليد من الخليفة للسلطان.
كما كان متبعا من قبل ، هذا ولم تشر المراجع الى صدور مثل
ذلك التقليد عن الخليفة ، ويبدو أن السلطان كان فى غنى عن
ذلك التقليد ، والواقع أن الخليفة أمير المؤمنين المستنجد بالله
أبا المحاسن يوسف الذى ولى الخلافة سنة ٨٥٩ هـ وظل فيها
حتى سنة ٨٨٤ هـ وكذا الخليفة الذى تولى بعد وفاته وبعهد
منه ، وهو ابن أخيه أبى العز عبد العزيز يعقوب ابن المتوكل
والذى لقب بالمتوكل كانا يقيمان بسكن الملك المنصور عثمان.
ابن السلطان جقمق بالحوش السلطاني بالقلعة وأنه لم يكن لهما
من الخلافة الا الاسم ، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل تعداه الى
البطش بهما * فبعد أن بويق قايتباى بالسلطنة أخرج قرية امبابه
عن الخليفة المستنجد بالله يوسف وكانت بيده منذ أيام المؤيد
أحمد بن الأشرف ايتال عندما أقطعها اياه ، وزاد السلطان فى
بطشه فأخرج عنه بعد مدة يسيرة أيضا جزيرة الصابونى
وأقطعها لبعض ممالكه واعتبر ذلك من مساوىء السلطان على
حد قول المؤرخين المعاصرين *

وبعد موت المستنجد بويغ ابن أخيه بالخلافة في ١٤ محرم سنة ٨٨٤ هـ وسمى المتوكل على الله وأحضر اليه شعار الخلافة وهدمت اليه فرس النوبة ، فنزل من القلعة في موكب حافظ وأمامه قضاة القضاة وأعيان الدولة فتوجه الى مسكن الخلقاء بجوار ضريح شجرة الدر ، ثم تحول من يومه وطلع الى القلعة وسكن بدار عمه يوسف حتى يكون كما كان عمه قريبا من السلطان ولا يستطيع أن يتصل بأحد وبعبارة أخرى فقد كان هو وعمه كالتحفظ عليهما .

وعلى الرغم من أن السلطان أمر في ربيع الأول سنة ٨٨٩ هـ بعمل مولد للسيدة نفيسة رضى الله عنها ، وهو أول مولد لها وقد حضره الخليفة والقضاة الأربعة وأعيان الناس واحتفل به احتفالا عظيما وأطلق عليه مولد الخليفة الا أن السلطان سرعان ما تغير خاطره على الخليفة وأخذ يتحين الفرص للبطش به كما سبق أن فعل بعمه وقد وافته الفرصة في جمادى الآخرة سنة ٨٩٩ هـ عندما شب حريق مجهول بالقلعة في حواصل السلطان عند البحرة ، وكان بها خيام كثيرة احترق غالبها ولم يسلم منها سوى خيمة المولد الشريف فقط ، وقدر قيمة تلك الخيام بنحو من مائتي ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك وظل سبب اشعال تلك النار مجهولا ، ثم أشيع أنها كانت من مطبخ بيت الخليفة ، وكان الحريق مدمرا واستمر ثلاثة أيام ، وعمل

السلطان بنفسه في اطفائه مع المماليك وصعد الأمراء للقلعة
لمواساة السلطان وأحضروا من حواصلهم خياما جديدا عوضا عن
تلك التي التهمت النيران وكان ذلك الحريق المجهول السبب ،
ذريعة للتكيل بالخليفة فقد استشاط - السلطان غضبا من ذلك
وأمر الخليفة بأن ينزل من القلعة ويسكن بالمدينة ونزل الخليفة
وعياله من القلعة وسكن في القاعة المجاورة لضريح شجرة الدر
بالقرب من المشهد النفيسى وأخذ بهذه الضربة التي روجها
أعداؤه .

ويبدو أن السلطان بعد أن اتزع قرية امباية وجزيرة
الصابونى من الخليفة المستنجد بالله يوسف اكتفى بما يدره عليه
المشهد النفيسى من النذور ، ولم تشر المراجع الى موارد الخليفة
المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز يعقوب الذى تعنف عن
الاستيلاء على ما يتحصل من مشهد السيدة نفيسة من النذور
وقرر صرفها على اصلاح المشهد وصيافته وعمارته .

وعلى الرغم من أن الخليفة لم يكن سوى خليفة اسمى الا
أن المتوكل أسهم في تسوية الخلاف بين السلطنة المملوكية وآل
عثمان ، فأرسل مع جاني بك حبيب رسالة في صفر سنة ٨٩٠ هـ
للسلطان العثمانى لتهدئة العداء القائم ، كما أرسل تقليدا الى
ابن عثمان «بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وماسيفتحه
الله على يده من البلاد الكفرية» .

برعايته للآخرين :

لجأ كثير من الأمراء والرسميين في الدولة الى بلاد آل عثمان من اضطهاد السلطان خشقدم وظلوا مقيمين بها حتى تولى قايتباي السلطنة فأخذوا في العودة الى ديارهم وشجعهم على ذلك سماحة السلطان ، ومن هؤلاء الذين عادوا الى الديار جاني بك حبيب الذي عاد من بلاد الروم في شوال سنة ٨٧٢ هـ ولما وصل أكرمه السلطان وخلع عليه ومنحه ألف دينار ، كما حضر أيضا في المحرم سنة ٨٧٣ الزيني عبد الرحمن بن الكوين الذي كان ناظرا للخاص وفر أيضا خوفا من خشقدم ، ولما مثل بين يدي السلطان خلع عليه ورحب به ونزل الى داره .

كانت مصر في عهده مقصدا وموتلا لأولئك المضطهدين في البلاد المجاورة ، حضروا اليها لينعموا برعاية سلطانها ، وليعيشوا في مآمن مما قد يحيق بهم في بلادهم ومن هؤلاء اللاجئين الذين أكرم السلطان وفادتهم نور على من ماردن حضر الى مصر في رجب سنة ٨٩٩ هـ فارا من صاحب العراقين ، فلما حضر أكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه وظل مقيما في مصر ينعم برعاية السلطان وعدله .

أما الأمراء الذين تعرضوا للاضطهاد والنفي والسجن قبل حكمه وأولئك الذين أصابتهم تقيته وغضبه فكان يقبل شفاعا الشافعين فيهم ويأمر بعودتهم الى القاهرة للاقامة في دورهم

ونسوق من ذلك على سبيل المثال انعامه في رجب سنة ٨٧٢ هـ على قرقماس الجلب وتعيينه أمير مجلس (٢٨) بعد استدعائه من منفاه بدمياط ، واستدعائه في نفس الشهر للناصرى محمد ابن الأتابكى جرباش كرت من منفاه بدمياط وانعامه عليه . وعندما ظهر القاضى تاج الدين بن المقسى في صفر سنة ٨٧٥ هـ وكان مختفيا خلع عليه السلطان وأعادته الى وظيفته . وعندما حضر في ذى الحجة سنة ٨٧٦ اياس الطويل المحمدى الذى كان نائبا لطرابلس أكرمه السلطان وخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش (٢٩) وأعادته الى طرابلس وأنعم عليه بأمره فيها يأكل منها وهو طرخان (بدون عمل) وذلك لكبر سنه وعجزه عن الحركة واحتراما لشيخوخته . كما شفع في جمادى الآخرة سنة ٨٧٧ هـ في جاني بك المشد الأشرفى برسباى الذى كان مقيما بالقدس بطالا (بلا عمل) وحضر الى القاهرة ورتب له ما يكفيه واستمر مقيما بداره حتى مات .

عاش الأجانب في أيامه في ببحوحة من العيش وأخذوا يمارسون تجارتهم ولم يتعرض أحد لهم أو لتجارتهم بأذى وعندما غرقت احدى المراكب في النيل قرب بيسوس في ذى القعدة سنة ٨٧٦ هـ وكان بها بضائع كثيرة لتجار من الأروام

(٢٨) أمير مجلس : المتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير .

(٢٩) الكنبوش : البرذعة تجمل تحت سرج الفرس .

أرسل السلطان شرف الدين بن كاتب غريب والقاضي جلال الدين
ابن الأمانة أحد نواب الشافعية وأمرهما بالتوجه الى مكان
الحادث لضبط ما يظهر من تلك البضائع الغارقة •

وقد أضفى السلطان رعايته على التابيين والمبرزين من
رجال الدولة ومن ذلك رعايته لتانى بك المعلم وكان من التابعين
فى لعب الكرة والرمح ولمجد الدين اسماعيل الشطرنجى وكان
تابعا فى لعبة الشطرنج وجيها عند الأمراء كثير العشرة للناس •
وللشيخ جعفر بن ابراهيم السنهورى الشافعى شيخ القراء بمصر
وكان يقرأ بأربع عشرة رواية ، وكان علامة فى فن القراءات •
وللشيخ شعبان بن الزواوى شيخ القبانيين وكان من الإعلام فى
صنعه القبانة وتحرير الأوزان • وللشيخ سليمان بن محمد المغربى
الذى كان اماما للخليفة ورأسا فى علم الميقات وغيرهم ممن
ازدانت بهم دولة الأشرف قايتباى •

كان السلطان يزور المرضى من رجال دولته ويواسيهم ومن
ذلك على سبيل المثال زيارته للأمير سودون البرقى ، أحد أمراءه
وجدير بالذكر أن هذا المرض هو الذى مات بعده سودون
بقليل • ونزوله الى دار تمر حاجب الحجاب لزيارته أثناء مرضه
وكان قد انقطع عن الركوب والصعود الى القلعة •

وتم تقتصر رعاية السلطان للأحياء بل تعدتها للأموات
فكثيرا ما نزل من القلعة للصلاة على بعض الأمراء وأبناء

السلطين وغيرهم ، كما كان وفيما لذكراهم ولأبنائهم واشبند به
الحزن على أحد رجال دولته حتى صرح بأنه لو كان يفتدى لعداه
بالمال . والأمثال كثيرة على وفاء السلطان للموتى نورد منها حزن
السلطان وبكائه عندما أحضر اليه سيف برقوق الناصرى
الظاهرى نائب الشام وأمره باحضار أولاده وعياله الى القاهرة
ونقل جثته لتدفن بالتربة التى كان أنشأها بياب القرافة وكان
برقوق هذا عند السلطان بمرتبة الأخ ، وتصريحه عند وفاة
أبى البركات أحمد بن يحيى بن شاكرا كاتب السر بأنه لو كان
يفتدى بمال لعديته ، وحزنه وأسفه عليه فقد كان المتصرف فى
أشغال السلطان الذى عين أخاه صلاح الدين فى نيابة السرعوسا
عنه . أما حزنه على وفاة الأمير يشبك الدوادر الكبير وأعظم
شخصية فى دولته فأجل من أن توصف وتعدى حزنه عليه الى
خاير بك (٣٠) من حديد عندما طلب من السلطان أن يمنحه
اقطاع يشبك بعد قتله فصب عليه جام غضبه وأهانته اهانة
بالغة ، فنزل الى داره وأغلق بابه وصرف غلماناه وأمتنع عن
الاجتماع بالناس وتفوه بكلمات كثيرة فى حق السلطان ، وكان
صعب المراس شديد الخلق قوى البأس ، فلما بلغ السلطان
ذلك استدعاه ، فاختنفى وخرج من داره ولبس جبة بيضاء وتعمم
بمئزر صوف أبيض كذلك ، وأخذ بيده سبحة وادعى أنه ترك

(٣٠) من : معناها الذى باعه والمقصود هنا أن حديدا هو الذى باع خاير .

الدنيا وبقي فقيرا مجردا وتوجه الى جامع قيدان عند قناطر الأوز وكان قد أنشأ عنده جوسقا مطلا على بركة الرطللى فأقام به ، فلما بلغ الأمير تمتاز ذلك توجه اليه ورجاه فى العودة الى داره فلم يوافق على ذلك وأصر على رأيه وبقي هنالك أياما ، ثم أرسل اليه السلطان قانصوه خمساية فأخذته من هناك ووضعته فى الحديد وطلع به الى القلعة سائرا على قدميه ، فلما مثل بين يدى السلطان أنه بالكلام وكاد أن يفتك به ثم أمر بنفيه الى دمشق وسجن بها . وجدير بالذكر أن خاير بك هذا من اخضاء السلطان ومن أكبر أصحابه منذ أن كان السلطان خاضكيا فانتقل عليه كأنه لم يعرفه .

أما رعاية السلطان لأولاد السلاطين وللسلاطين الذين تسلطوا قبله فلم تحدث من قبل وهى تدل على شجاعة وثقة كاملة فى النفس اذ تركهم ولم يخش منهم على ملكه . ومن هؤلاء الذين جباهم السلطان برعايته منصور بن السلطان خشقدم والملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال والسلطان الظاهر تبرغا والملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق .

أما منصور بن الظاهر خشقدم فعندما صعد الى القلعة لتهنئة السلطان بالعيد ودخل على السلطان وكان جالسا على الكرسي بالقصر الكبير ، ولما وقف منصور بين يدى السلطان خلع عليه .

ثم أجلسه معه على الكرسي وكان صغير السن عمره دون العشر سنين .

وأما الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال فقد حضر الى القاهرة في ربيع الآخر سنة ٨٨٤ هـ لزيارة والدته التي مرضت مرض الموت ولم يمانع السلطان في اجابتها الى طلبها وحضور ابنها لكي تراه ، وعندما حضر وطلع الى القلعة ودخل الحوش وهو راكب ومعه ولده قام السلطان ورحب به وخلع عليه وعلى ولده ونزل من القلعة في موكب حافل ومعه الأمراء ونزل بداره التي كانت بالجسر الأعظم (٣١) عند والدته . أضاف السلطان الملك المؤيد بالبحرّة وخلع عليه وعلى ولده ، وأذن له بالعودة الى الاسكندرية ، وفي هذه الزيارة قدم الملك المؤيد للسلطان هدية جليّة من مال وتحف من تركية والدته ، ثم سافر الى الاسكندرية بعد أن أقام بالقاهرة شهرين .

ولما زار السلطان الاسكندرية الزيارة الأولى خلع على الملك المؤيد ولعب معه الكرة ، وفي سفره للمرة الثانية كان الملك المؤيد موجودا بالقاهرة لزيارة والدته المريضة ، وقد تعجب الناس كيف سافر السلطان وتركه بالقاهرة وغالب المماليك الموجودين بها مماليك أبيه الملك الأشرف اينال .

(٣١) الجسر الأعظم : موقعه بالنسبة للقاهرة العالية شارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسنة سابقا) .

أما الملك الظاهر تمرغا الذي خلفه قايتباي في السلطنة ، فقد أمر السلطان في رجب سنة ٨٧٢ هـ باخراجه ، الى ثغر دمياط وهو في غاية العز والاكرام من غير تقييد ، وعندما كان بالبحرة قبل سفره كان يرسل اليه السلطان في كل يوم الأسمطة الحافلة وعندما خرج للسفر اجتمع به السلطان واعتذر اليه عما حدث بشأن السلطنة وأنه لم يكن باختياره ، وانما كان على كره منه وذلك تبريرا لحثته الايمان التي كانت بينه وبين تمرغا بالأبلى السلطنة ، وودع السلطان الظاهر تمرغا قبل سفره الى دمياط من القلعة وهو راكب على فرس من خيل السلطان ونزل من باب القرافة بعد العشاء وتوجه الى ساحل البحر ونزل في الحرافة وتوجه الى ثغر دمياط حيث سكن أحسن دورها ، كما كان يركب لصلاة الجمعة وبينما كان السلطان مشغولا في تدير المال اللازم لمواجهة نفقات الحرب ضد شاه سوار ووقوف شيخ الاسلام أمين الدين الاقصرائي الحنفي في وجه السلطان ليمنعه من الاعتداء على أملاك الأوقاف والمساجد وردت الأخبار من دمياط بفرار الظاهر تمرغا ، وأن شيخ العرب محمد بن عجلان وعيسى بن سيف أنزلاه في مركب وطلعا به من الطينة (٣٢) وكان قصدهم التوجه الى حلب ، وعندما تأكد السلطان من ذلك اضطرب وضاق بالأمر ذرعا وشغله ذلك عن أمر شاه سوار

(٣٢) الطينة : بليدة بين القرواوتنيس .

وعرض العسكر ، وأمر الأمير يشبك بأن يخرج ويلاقى الظاهر
تمربغا من غزة فخرج على جرائد النخيل (٣٣) ، واحتياط
من جهته للأمر وأمر بالنداء فى القاهرة بالا يخرج أحد من داره
بعد صلاة العشاء ولا يحمل سلاحا ولا يخوض أحد فى الكلام
فى شأن الظاهر •

وفى ذى الحجة سنة ٨٧٢ هـ قبض أرغون شاه الأشرفى
على الظاهر تمربغا وتلقاه الأمير يشبك عند بلبيس وحمله فى
محفة وتوجه به الى ثغر الاسكندرية من غير تقييد ، ورفق به
السلطان ثانية فلم يسجنه وأمر له بأن يسكن بدار الملك العزيز
بالاسكندرية وأن يركب الى صلاة الجمعة والعيدين • وكتب
الظاهر تمربغا كتابا الى السلطان بخطه وذكر فيه «المملوك تمربغا
يقبل الأرض وينهى» ، واعتذر عما وقع منه بسبب هربه من
دمياط واعتل بأنه كان يقصد التوجه الى شاه سوار ليصلح بينه
وبين السلطان لتخمد الفتنة التى أضرمها ، ويبدو أن جماعة
تمربغا وهم الظاهرية كانوا على علم بالأمر وأنهم استاءوا من
أرغون شاه نائب غزة الذى قبض على تمربغا •

وما زال السلطان يرعى الظاهر تمربغا ففى شوال سنة ٨٧٣ هـ
أرسل اليه بالاسكندرية فرسا وخلعه واستمر فى السماح له

بالركوب الى الجامع وصلاة الجمعة والعيدين والى حيث شاء
بالاسكندرية ، وظل الظاهر تربيغا مقيما بالاسكندرية معززا
مكرما حتى توفى في ذى الحجة سنة ٨٧٩ هـ وقد جاوز الستين
من عمره ، وكان من ممالك الملك الظاهر جقمق اشتراه سنة
٨٢٧ هـ وأعتقه ثم تدرج في سلك الوظائف حتى صار سلطانا ،
وظل في السلطنة ٥٨ يوما « وكان ملكا جليلا شجاعا بطلا
عارفا بأنواع الفروسية وافر العقل كامل الهيئة واليه تنسب
أشياء كثيرة في مسألة الحرب وفي النشاب والرمح » •

أما الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق فقد آذن له
السلطان في شوال سنة ٨٧٣ هـ بالحضور من الاسكندرية
لتأدية فريضة الحج ، فلما صعد القلعة ووقف بين يدي السلطان
وأراد أن يقبل الأرض نهاه عن ذلك وبالغ في اكرامه ، وخلع
عليه وقدم اليه فرسا بسرج ذهب بكنبوش ، فركب من الحوش
ونزل من القلعة في موكب حافل وأمامه الأمراء وتوجه الى
دار الأتابكي أزبك زوج أخته وأقام عندها وكان زوجها غائبا •
وبعد أيام اضافه السلطان بالبحرة وقدم له الأسمطة كما خلع
عليه ونزل في موكب حافل ، ثم أخذ السلطان في تجهيز سفر الملك
المنصور للحج ، وخرج صحبة الحج ، وأنعم عليه السلطان
بأشياء كثيرة • وبعد أن أدى فريضة الحج عاد في المحرم سنة
٨٧٤ هـ ولما طلع الى القلعة احترمه السلطان وأكرمه وخلع

عليه ونزل في موكب حافل الى دار الأتابكي أزيك . وفي صفر سنة ٨٧٤ هـ أضاف السلطان الملك المنصور عثمان بالبحرة وخلع عليه وأذن له بالتوجه الى ثغر دمياط .

وحضر الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق للمرة الثانية في ذى الحجة سنة ٨٧٨ هـ وأكرمه السلطان وخلع عليه ونزل الى دار الأتابكي أزيك عند أخته ، ثم صعد القلعة لضرب الكرة مع الأمراء وعمول معاملة السلاطين في ارخائه البند الأصقر وتغييره الفرس في المكان الذي يغير فيه السلطان فرسه ، وأقام الملك المنصور بالقاهرة نحو الشهرين ثم عاد الى دمياط وكان في غاية العز والعظمة ، وعند ختان أبناء الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق في دمياط في ذى الحجة سنة ٨٨٠ هـ أرسل اليه السلطان ألقى دينار وتوجه اليه ابن رحاب المعنى وأنشد في الزفة .

وظل الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق في عز وأبهة يتصرف وكأنه سلطان لم يخلع الي أن توفي في المحرم سنة ٨٩٢ هـ في دمياط وأمر السلطان بنقل جثته الى مصر وأحضرت الجثة ودفن على أبيه الملك الظاهر جقمق بتربة قاني باى الجركسى بمسجده الذى مازا قائما بحى السيدة عائشة .

عطف السلطان :

تميز السلطان قايتباى بالعطف على الفقراء وأرباب الديون وذوى الحاجات والمعوزين وقد امتلأت صحائفه بذلك وعدت من

محاسنه ونورد من ذلك على سبيل المثال اطلاقه بعض المساجين
بسجن المقررة وكان أحدهم مسجوناً به منذ ثلاثين سنة لم
يستطع أن يوفى ما عليه من ديون حتى وفاها عنه السلطان وأطلقه،
وتوزيعه نحواً من ثمانمائة دينار على الفقراء والمدينين • ومنها
ما استنته من توزيع العطاء على الفقهاء والعلماء ، توسعة في شهر
رمضان واستمر ذلك في كل شهر من رمضان حتى وفاته •
وعندما سقط أحد النجارين ممن كانوا يعملون في طباق
الماليك بالقلعة ومات التمس أولاده صدقات السلطان فأمر
بمنحهم مائة دينار وثوباً بعلبكات وثلاثة دنانير أشرفية لتجهيز
الميت • وعظفه على رجل فقير أنجب أربعة أولاد بعشرة دنانير
 وخمسة أرادب قمح • هذا وعظفه على سكان الحرمين الشريفين
سطر في صحائفه وكان أول نزول قمح الدشيشة للمدينة المنورة
مع الحاج في شوال سنة ٨٨٩ هـ •

مصادراته :

لم يخل عصر السلطان قايتباي من المصادرات ومهما قيل
فيها فهي أقل منها في عهود من سبقه ومن تلاه من سلاطين المماليك
وكان لكل منها ما يبرره • بعد أن تمت له السلطنة أمر بتقييد
خاير بك فقيده هو وابن العيني ووضعاً في مكان بالقرب من
القصر الكبير ، وكان هذا أول حكم صدر منه • ثم أخذ في
مصادرتها فطلب من خاير بك ستين ألف دينار غداً ليحوله

وسلحه وغير ذلك ، ومن ابن العيني مائتي ألف دينار عدا خيوله
وسلحه وغير ذلك ، كما أمر باخراج خير بك من القاهرة
فخرج تحت جنح الليل وهو مقيد راكب على فرس
والأوجاقى (٣٤) معه وفي يده خنجر ، فلما وصل الى شاطيء
البحر نزل في الحرافقة وأقلعت به حتى وصل الى ثغر الاسكندرية
فسجن بها . وأما ابن العيني فأحضر بين يدي السلطان في
الدهيشة وأنبه لتلكته في سداد ما قرر عليه من المال فبطحه على
الأرض وضربه بيديه حتى شق كعبه وأدمى فأغمى عليه ، فشفع
فيه بعض الأمراء وتوجهوا به الى طبقة الزمام فأقام بها أياما ثم
تسلمه الأمير يشبك الدوادار فنزل الى داره ليوفى ما قرر عليه
من المال . وجدير بالذكر أن ابن العيني كان يحاكي أولاد
السلطين حتى أطلق عليه عزيز مصر . ثم أفرج عنه السلطان
بشفاعة الأمير يشبك الدوادار والتزم ابن العيني بأن يرد في كل
شهر عشرين ألف دينار من الذهب النقد فكان جملة ما سدده
للخزائن الشريفة من الذهب النقد مائة وتسعة وستين ألف دينار
وذلك غير غلاله وخيوله وجماله ورزقه واقطاعاته ومراكبه
ومماليكه وقدرت قيمته بمائة ألف دينار . وأما زين الدين
الاستادار فقد قبض عليه السلطان وكان بطالا (بلا عمل) مقيما
في داره ، وعندما مثل بين يديه وبخه بالكلام ثم أمر بضربه بين

(٣٤) الأوجاقى : الذى يعول أمور الخيل للتسيير والرياضة .

يديه فضرب ضربا مبرحا حتى أوشك على الهلاك ثم سجنه بالبرج - بالقلعة ، ولما علم السلطان بموته لم يصدق وأمر بإحضاره بين يديه فكشف وجهه ورفسه برجله ثم أمر بحمله الى داره ليغسلوه ويدفنوه فحمل من القلعة الى داره ، وكان بينه وبين السلطان عداوة قديمة منذ أن كان السلطان جنديا ، ولما تسلطن أخذ يثأر منه ، وكان يظن أن مع زين الدين مالا كثيرا فصادره وعاقبه وطلب منه المال فلما عجز عن دفعه سجنه حتى مات تحت العقوبة * وأما جلال الدين عبد الرحمن بن سويد فعوقب عقابا شديدا بسبب الأوقاف التي باعها وكانت موقوفة على مدرسة جده ، وباع ما يملك ليسدد ما عليه من ديون *

لما تغير خاطر السلطان على برهان الدين النابلسي وكييل بيت المال قبض عليه وسلمه للأمير يشبك الدوادار ليستخلص منه الأموال ، وظل يشبك يعاقبه حتى أخذ منه بعضها ، وقد تفنن في تعذيبه ، وقيل انه ضربه نحو من ألفي وستمائة عصاه وخلع أضراسه ودقهم في رأسه حتى مات ، ويبدو أن ذلك العذاب الذي حاق به لم يكن الا من تقية الناس عليه إذ أنه أقبح نفسه في أمور السلطنة وظلم وتعدي حدوده ولم يقدر عاقبه أفعاله السيئة فأخذ من الجانب الذي أمن اليه بعد أن عادى جميع الناس بمصر والشام *

وأما المرأة فلم تنج من مصادرات السلطان ومن ذلك ما حدث للست سادة والدة القاضي ناظر الخاص يوسف بن كاتب حكيم التي طلب منها السلطان مالا لاعداد الحملة لحرب شاه سوار ولما أظهرت العجز أقسم السلطان أنه لن يأخذ منها أقل من مائة وخمسين ألف دينار نقدا على ألا تباع شيئا مما تملك ولم يقبل شفاعة أحد من الأمراء فيها ، ووفت ما قرر عليها في عدة أشهر ولما مثلت بين يدي السلطان قام لها وعظمها وخلع عليها *

تنظيمات :

اعتاد السلطان أن ينظر في الشكاوى بنفسه وكان يجلس يومين في الأسبوع بلا انقطاع وكانت له مواقف حازمة سوى فيها بين الأمير وغيره ، ولما كثرت عليه الشكاوى تقرر الا تقدم الشكاوى للسلطان مباشرة حتى يمنع ذلك السيل العرم من الشكاوى والتي لم يتسم معظمها بطابع الجحد حتى أن امرأة شكت زوجها للسلطان لأنه وطىء جارية في ملكه فاشتدت بها الغيرة *

ويبدو أن رعوس النوب والنقباء (٣٥) بأبواب الحكام كانوا يغالون فيما يأخذونه من أموال فأمر السلطان القاضي كاتب السر ابن مزهر بأن يجمعهم ويأخذ عليهم التعهدات بالألا يأخذوا

(٣٥) النقباء : يؤدى صاحبها أعمالا صغيرة لسيدة .

من الخصوم أكثر من نصفين فضة لكل نقيب تنفيذاً لمرسوم
السلطان فجمعهم وأخذ عليهم الموائيق ولكن ذلك لم يستمر
طويلاً وعادوا إلى ما كانوا عليه .

المساواة :

دأب السلطان عند نظر الشكاوى على المساواة بين
الخصوم لا فرق في ذلك بين أمراء الدولة وعامة الشعب ، فعند
ما نزل إلى الاسطبل وجلس ليحكم به وجلس كاتب السر بين
يديه على الدكة لقراءة القصص ، جاء شخص وشكى يشبك
الدوادار وكان واقفاً بين يدي السلطان فأمره السلطان أن ينزل
ويقف ، بازاء خصمه حتى تتم الدعوى وحدث مثل ذلك عندما
ادعى شخص آخر على جاني بك .

وقد عمت هذه المساواة بين رعايا الدولة المملوكية فإذا
تعذر وجود من يلي وظيفة معينة في مصر اتجه السلطان إلى الشام
يبحث فيها عن من يلي تلك الوظيفة فلما توفي قاضي القضاة الحنفى
شمس الدين الامشاطى في رمضان سنة ١١٨٦ ، ولم يوجد في مصر
من هو كفاء لهذه الوظيفة ، استدعى السلطان من الشام
شرف الدين موسى بن عيد ليتولى هذه الوظيفة وظل المنصب
شاغراً حتى حضر ابن عيد .

وحتى أقاربه وأقرب الناس إليه لم يتهاون معهم بل

أخذهم بالشدة فعندما امتنع تمراز الشمسى أحد أقاربه عن السفر عندما عينه نائبا للشام ونزل من القلعة غاضبا ، أمره السلطان بالخروج الى مكة منفيا وأصر على رأيه الى أن توسط للصفح عنه لدى السلطان الأتابكى أربك ، ولم يقبل السلطان الشفاعة الا بعد جهد كبير .

وحتى أولئك الذين كانت فى نفسه منهم وحشة ، وجاءت الفرصة للانتقام منهم لم يفتنهم الفرصة للبطش بهم بل أنصفهم عندما ظهر الحق فى جانبهم ، وأمر بعقاب المدعين عليهم ، فعندما ادعى الفقيه شهاب الدين القلقلى على الشيخ عبد البرين الشحنة بأنه سلب عليه غلمانه وعبيده وأنهم ضربوه ضربا مبرحا وذكر أن عبد البر جاهل لا يحسن قراءة الفاتحة وأن الصلاة خلفه لا تصح ، فمال السلطان مع القلقلى لما كان فى نفسه من عبد البر منذ فتنة ابن الفارض اذ كان رأس المتعصبين عليه ، وأمر السلطان باحضار عبد البر ومشايخ القراء الذين أثنوا على قراءة عبد البر ، وعندئذ غضب السلطان على القلقلى خاصة وأنه حلف برأس السلطان أن عبد البر لا يحسن قراءة الفاتحة ، ولما تبين كذبه أمر السلطان بضربه فضرب بين يديه وليت الأمر اقتصر على ذلك بل أرسله الى القاضى المالكى ليطبق عليه ما يقتضيه الشرع .

وَأما ارجاع الحقوق الى أصحابها فأمر لا يقبل المناقشة، بل

كان يصر عليه مهما كانت شخصية الخصم ، فعندما جاء الشهابي أحمد بن أسنبغا الطيارى بقصة الى السلطان يشكو فيها من قانصوه خمسمائة الذى اعتدى عليه بفتح باب من عنده بغير حق شرعى وقطع له عدة أشجار ولما سمع السلطان ذلك لام قانصوه خمسمائة وأمر بسد الباب ودفع تعويض عن قيمة الأشجار التى قطعها .

الردع :

على الرغم مما تميز به السلطان قايتباى من طيبة القلب ، إلا أنه لم يتهاون البتة فى الضرب على يد العابثين والمفسدين والمنحرفين والمستغلين ، حتى ولو كانوا من القضاة أو رجال الدولة أو من المقربين اليه . وكان السلطان مهيب الجانب يخشاه الصديق قبل العدو ، وكثيرا ما تخلص بعض الناس من حياتهم بالموت خوفا من لقاء السلطان ورهبة مما قد يحيق بهم وقد امتلأ عهده بالكثير من القصص المؤيدة لذلك .

فعندما كثرت الشكاوى من قاضى القضاة الحنفى شمس الدين العزى بسبب أوقاف الحنفية أمر السلطان بعقد مجلس يحضره قضاة القضاة الثلاثة لعمل حساب أوقاف الحنفية، وقد أهيئ قاضى القضاة فى المجلس بسبب تصرفاته . وعندما كثرت الشكاوى من محمد بن اسماعيل قاضى الواحات أمر

السلطان باحضاره ، فلما مثل بين يديه جرده من ملابسه وضربه بالمقارع ثم طافوا به القاهرة على حمار ثم سجنه بسجن المقشرة ، فمات بعد أيام ، وكان من كبار المفسدين في الأرض ، ولم ينبج من غضبة الشعب حتى بعد موته فثار عليه بعض من أهل الواحات ورجموه بالحجارة وهو في النعش وأرادوا حرقه بالنار ولم يتمكنوا من دفنه الا بعد جهد كبير . وعندما شكت امرأة من بدر الدين القرافي أحد نواب المالكية ، أحضره السلطان وبطحه وضربه ضربا مؤلما وغرم مالا بعد عدة مجالس عقدت بينه وبين المرأة التي شكته . ولم ينبج القاضي شهاب الدين القمتي المالكي من العزل عندما أصدر حكما جائرا . وعندما سعد القضاء للقلعة في رجب سنة ٨٩٢ هـ انتهت السلطان بالشهر أمر بالقبض على رجال القاضي الشافعي زين الدين زكريا ووكل بهم من يقوم بعمل حساب الأوقاف معهم واستمروا محجوزين مدة ثلاث سنوات . وضرب السلطان شهاب الدين القصيف من نواب الحنفية وأمر بنفيه الى الواحات وقبل السلطان الشفاعة فيه وكتب عليه ميثاقا « بأن لا بنوب في الحكم أبدا ولا يسعى في ذلك ولا يشهد في شيء من الأمور الشرعية » هذا وقد عزل السلطان قاضي القضاء محب الدين بن الشحنة وأصدر الأمر لعمل حساب أوقاف الحنفية وسبب ذلك ما حدث في المجلس الذي كان بين خوند شقرا وبين ابنة أختها خوند آسية بسبب

وقف الظاهر برقوق وتعصب ابن الشحنة لخوند شقرا فغضب
السلطان عليه وعزل وكانت هذه آخر ولاية له في القضاء واستمر
محجوزا بسبب أوقاف الحنفية الى أن شفع فيه الأتابكي أزيك
فنقل الى بيت كاتب السر حتى يتم حساب تلك الأوقاف *

ولم يسلم من العقاب على بن قمتي رأس نوبة النقباء
والذى خدم السلطان عندما كان رأس نوبة النوب وذلك عندما
استبد وطغى ومات تحت العقوبة * واما حمور رأس المفسدين
فأمر السلطان بقتله وأنزل من القلعة وهو مسمر على لعبة من
الخشب غريبة الهيئة تجر بالعجل ولها حركات تدور بها وقتل
عند بركة الفييل وأراح الله الناس من شره ، كما أمر بقتل شخص
يقال له أحمد الدنف الزينى وكان أستاذا فى فن السرقة ، وأمر
السلطان بقتل كاشف البحيرة خشقدم وقتل معه شخص من
الكتاب يقال له ابن الطواب وذلك لأنهما لم يقوما بدفع المال
الذى تجمّد عليهما * وتغير خاطر السلطان على الجمالى يوسف
كاتب المماليك وأخذ منه تسعة آلاف دينار وذهب عقله من هول
ما جرى له واعتراه الجنون * ولما كثرت الشكاوى ضد خص
بك من مال باى نائب القدس أمر السلطان باستدعائه فلما مثل
بين يديه أمر بضربه فضرب وسجن حتى سدد ما قرر عليه من
المال وعزل من نيابة القدس * وأما أبو الفتح المنوفى نائب جده
والذى كان فى خدمة السلطان حين كان شاد الشرايخاناه فقد

أمر بالقبض عليه وأودعه اليمارستان مع المجانين وهو عريان
مكشوف الرأس وفي عنقه الحديد • وأمر السلطان بإبعاد جماعة
من نواب الشافعية ونواب الحنفية وأمر الا يسجن أحد الا باذن
من القاضى الشافعى والقاضى الحنفى • وأما مجد الدين بن
البقرى فقد أمر بسجنه فى سجن المقشرة ما يزيد على ست
سنوات • كرهه السلطان لما أظهره من شماتة عندما قتل يشبك
الدوادر وأمر بقتله فقتل عند بركة الكلاب ثم حمل الى تربة
عمه حيث دفن فيها •

وعندما بلغ محب الدين أبو الطيب الأسيوطى تغير خاطر
السلطان عليه وعزمه على عقابه توجه الى مقياس النيل وألقى
بنفسه فى البحر عمدا فغرق ومات وقد هانت عليه نفسه لما تخيل
ما سوف يحل به •

وأما الزنا واللواط فقد حاربهما السلطان حربا شعواء
ولم يقبل فى مرتكبيها أية شفاعة بل اشتد الى درجة القتل
والخصى وليس يخاف أن السلطان نفسه لم يزن ولم يلط وأنه
لم يتزوج سوى زوجة واحدة ولم يكن له سوى سريّة واحدة •

السلطان وقتنة سيمى عمر بن الفارض :

كان للسلطان قايتباى اعتقاد تام فى المشايخ والأولياء
والصالحين سواء من انتقل منهم الى الرفيق الأعلى أو من كان

على قيد الحياة ، وكان له في الشيخ عبد القادر الدشطوطى غاية الاعتقاد وكان يتولى ارشاده كلما مر عليه وكان السلطان يمثل أمره كما كان يقبل يده • وظلت منزلة الشيخ عبد القادر الدشطوطى عند السلاطين بعد قايتباى وقد أنشأ ابنه محمد وأمه خوند أصلباى مسجدا أو قنطرة بالقيوم بإشارته ، كما أن السلطان الغورى أعفى بعض الجهات بالقيوم والقاهرة من الضرائب بإشارته كذلك ، وأنشأ له مسجدا دفن فيه مازال قائما بحى باب الشعرية حتى الآن • وقد قطع بعض المؤرخين بولاية قايتباى وصلاحه وأضافوا أن البعض بشره بالسلطنة قبل أن يليها بزمن طويل وأنه كان يطلب اليهم اخفاء ذلك حتى لا يتعرضوا واياهم الى عقاب السلاطين القائمين بالأمر • وكان للسلطان قايتباى أوزاد وتهجد ، يعيب على الشعراء مدحه متمنيا لو وجهوا ذلك لمدح الرسول الكريم ، ولما زار الحجاز والقدس عم تلك الأقطار الخير وأنشأ من ماله الخاص بالقاهرة منشآت للاستغلال ليصرف من ريعها على فقراء المدينة • ولما ثار الجدل بين العلماء بسبب قصائد سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه ، ألقى السلطان بثقله فى المسألة وعمل على حسم الفتنة والخلاف وكان متعصبا لابن الفارض • ففى محرم سنة ٨٧٥ هـ كثر الجدل بين العلماء بالقاهرة فى أمر الشيخ العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض ، وقد تعصب عليه جماعة من العلماء

يسبب أبيات قالها في قصيدته التائبة فاعترضوا عليه في ذلك
وصرحوا بنسقه وتكفيره ونسبوه الى من يقول بالحلول
والاتحاد وحاشاه من ذلك * وكان على رأس من تعصب على
الشيخ عمر بن الفارض برهان الدين البقاعي وقاضى القضاة
محب الدين ابن الشحنة وولده عبد البر وقاضى القضاة عز الدين
الحنبلى ونور الدين المحلى وتبعهم جماعة من طلبة العلم ينادون
بتكفيره ، وتعصب له من العلماء الشيخ محبى الدين الكافيحى
الحنفى والشيخ قاسم الحنفى والشيخ بدر الدين بن الغرسى
والشيخ نجم الدين بن يحيى بن حجبى والشيخ جلال الدين الأسيوطى
والشيخ زكريا وتاج الدين بن شرف * ولما استفحل الأمر كتبت
الفتاوى فى هذه المسألة التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشرع
فكتب الشيخ محبى الدين الكافيحى على هذا السؤال ما هو
أحسن عبارة وأقرب الى الانصاف ، وألف جلال الدين
الأسيوطى فى ذلك كتابا سماه قمع المعارض فى الرد على بن
الفارض والى البدرى بن الغرسى فى ذلك كتابا شافيا فى هذا
المعنى واضحا فى الرد على من تعرض لابن الفارض وصنف بعض
العلماء كتابا سماه دريات الأفاعى فى الرد على البقاعى ووقعت
مشاحنات بين العلماء وهجوا البقاعى وابن الشحنة وغيرهم ممن
تعصب على ابن الفارض وصاروا يكتبون الأوراق بهجو
المعترضين ويلصقونها فى مزاره * وتعصب لابن الفارض بعض

الأمرء والسُلطان الذي أمر كاتب السر ابن مزهر بأن يكتب
سؤالاً إلى الشيخ زين الدين زكريا الشافعي نصه :

« ما يقول الشيخ الامام العالم العلامة البحر الفهامة زكريا
الانصارى الشافعي نفع الله المسلمين به عن من قال يكفر سيدنا
ومولانا الشيخ عارف بالله عمر بن الفارض تغمده الله تعالى
برحمته ورضوانه فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على فهمه من
كلامه في مواضع مرجعها إلى اطلاقات معلومة عن السادة
الصوفية باصطلاح مخاطبهم لا محذور فيها شرعا ، فهل يحمل
كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقتة أم على اصطلاح
أهل ملة غير الاسلام ، فما الجواب عن ذلك أقتونا مأجورين »
ثم بعث هذا السؤال إلى الشيخ زكريا فامتنع عن الكتابة عليه
وبعد الحاح كتب يقول :

« يحمل كلام هذا العارف رحمة الله عليه ونفع بركاته
على اصطلاح أهل طريقتة بل هو ظاهر فيه عندهم إذ اللفظ
المصطلح عليه حقيقة في معناه الاصطلاحى مجاز في غيره كما هو
مقرر في محله ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره في بعض آياته في
التأثية في القول بالحلول والاتحاد فإنه ليس من ذلك في شيء
بقرينتى حاله ومقاله المنظوم في تأثيته من أبيات القصيدة .

ولى من اثم الرويتين اشارة
تنزهه عن رأى الحلول عقيدتى

وقد يصدر عن العارف بالله إذا استغرق في بحر التوحيد
والعرفان بحيث تضحل ذاته وصفاته في صفاته وتغيب عن كل
ما سواه عبارات شعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان
حالته التي يرقى إليها كما قال جماعة من علماء الكلام ولكن
ينبغي كتم تلك العبارات عن من لم يدركها فما كل قلب يصلح
للسر ولا كل صدف ينطبق على الدر ولكل قوم مقال وما كل
ما يعلم يقال وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قال بعضهم
في المعنى :

فاذا كنت بالمدارك غرا ثم أبصرت حادقا لاتمارى
وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالابصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه كما قال

القائل :

ولو يذوق عاذل صبايتى صبا معى لكنه ماذاقها

والحالة هذه والله يمنح بفضلها ويمنع من يشاء بعدله وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وكتبه زكريا بن
محمد الانصارى الشافعى *

وبعد هذه الاجابة الشافية انتهى الاضطراب الذى ساد

البلاد بسبب المتعصبين على ابن الفارض والمتعصبين له *

رفع المظالم :

اصدر السلطان عدة مراسيم بالغاء المكوس فى أنحاء الامبراطورية المملوكية وكانت تلك المراسيم من الرخام أو الحجر تثبت عادة على أبواب المساجد وأبواب المدن وكان ينص فيها على الاعفاء من المكوس والضرائب التى يرى السلطان الاعفاء منها ، كما ينص فيها على ائزال العقاب على من لا يلتزم بتنفيذها أو يعود إليها ، وقد حفظت لنا الأيام عددا من تلك المراسيم التى تعتبر من وسائل الاعلام فى القرون الوسطى ، وكان ينادى فى أنحاء البلاد بمضمون تلك المراسيم كذلك حتى تعم المعرفة بها وحتى لا يكون هناك عذر لمن لم يرها أو يعرف عنها شيئا . ولم يبق من هذه المراسيم فى مصر سوى مرسوم واحد مازال موجودا بالجامع العمري بقوص وهو صادر عن الأمير يشبك الدوادار باعفاء بعض الرزق . أما الشطر الآسيوى من الامبراطورية المملوكية فمازال بدمشق مرسومان وبطرابلس أربعة مراسيم وبحلب تسعة مراسيم وفى الرملة مرسومان وفى بعلبك ستة مراسيم وفى القدس مرسوم وحماء ثلاثة مراسيم وفى حمص مرسوم واحد وكذا فى ديفركى بآسيا الصغرى وصدرت عدة مراسيم خاصة بالحجاز وان لم يصل اليها منها شىء فيما أعلم . ويبدو أن مثل تلك المراسيم كانت تصدر عن السلطان أو عن الولاة والمسؤولين نتيجة لروح الاستياء والتذمر التى

كانت تظهر من الباعة والتجار والمتسبين • ومما أبطله السلطان
عدة مكوس منها مكس قطيا (٣٦) ومكس الخشب والأطرون
بالبحيرة وغير ذلك من المكوس بمصر وجده •

وعندما فرض على الأساكفة من قبل الدولة جلود وقرر على
أساكفة بين القصرين وعلى أهل الصليبة الدرهم بمثله مرتين ،
أذعن أساكفة بين القصرين ودفعوا ما طلب منهم ، وأما أساكفة
الصليبة فقد أخذوا الجلود ووعدوا بوفاء ثمنها ولكنهم وقفوا
للسلطان ليعرضوا عليه شكواهم وحال بينهم وبين السلطان
خدام الحوش السلطاني ولكنهم لم يياسوا واحتالوا لتوصيل
شكواهم للسلطان وصعدوا الى أعلى الجبل المقابل للحوش
السلطاني وكان يجلس فيه للأحكام واستغاثوا ، فسأل السلطان
عن حالهم ولما علم بما فعله فيهم ابن غريب استشاط غضبا ،
وهذا يشبك الداودار من روعه وتقرر « لا يرمى عليهم شيئا
وأن يعيدوا جميع ما أخذوه » وأرسلهم السلطان الى بيت
الأمير يشبك حيث سويت مشكلتهم •

وأما تجار سوق الأخفاف فقد وقفوا للسلطان وكانوا قد
قدموا له قصة ، وهو صاعد الى القلعة من الرماية ، وضمنوها
أن الوزير ظلمهم ، وأنه كان مقررا عليهم في كل شهر أربعمائة

(٣٦) مكس قطيا : المقصود به المكوس (الضرائب) التي كانت تحصل عند
قطيا ، وهي قرية في طريق مصر الى الشام ، في وسط الرمل قرب الغرما •

درهم فلوسا (٣٧) فصار يأخذها ثلاثة آلاف ، وأمر السلطان أن يرفع عنهم ذلك الظلم وتوجهوا لابن غريب ولكنه رفض وقررها ألفا وخمسمائة درهم ، فوقفوا مرة أخرى فقرر السلطان الغاء مكس الأخفاف •

اضطرت الظروف الملحة لاعداد الحملة الحربية لمحاربة شاه سوار الخارج على الطاعة الى أخذ الأموال من الناس وقطع بعض المراتب ، ولكن السلطان أعاد الى بعض الناس ما كان أخذه منهم وقد تعجب الناس سيما وأن هذا الصنيع صدر من السلطان تلقائيا • والواقع أن المظالم في عهد قايتباي كانت بسيطة وأنه اذا ما ترمى الى سمعه حدوث مظلمة بادر الي رفعها •

مجالس السلطان :

تعددت مجالس السلطان ، وكان جلها في أوائل الشهور العربية عندما كان يصعد قضاة القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر الجديد ، وهناك بعض مجالس كان السلطان يطلب عقدها لظروف طارئة ، وكان السلطان يعرض الرأي بنفسه أو عن طريق كاتب السر ومعظم مجالسه كانت لأخذ موافقة القضاة

(٢٧) الفلوس : عملة صغيرة •

على ما يريده السلطان مثل جمع المال لنفقات الحملات الحربية أو للنظر في شئون الدولة لا سيما تصرفات القضاة فيما يختص بالأحكام والأوقاف وكذا أخذ الفتاوى وتنفيذ أحكام الشرع أو لمناقشة مسائل بعينها لوضع حل حاسم لها . وقد خذل السلطان في بعض تلك المجالس فلم يحظ رأيه بالتأييد ، ومثل تلك المجالس كانت تنفض على مضض من السلطان وكثيرا ما كان يكتم شعوره . ويمكن أن يقال ان مثل هذه المجالس كانت مجالس شورى . وفيما يلي عرض لبعض تلك المجالس وما دار فيها .

كانت أولى هذه المجالس في ذى القعدة سنة ٨٧٢ هـ عندما وصلت الأخبار للسلطان بهزيمة جيشه على يد شاه سوار الذي زاد جيشه قوة بما غنمه من خيول وسلاح من جيش السلطان والذي عزم الزحف على حلب ، فأمر بعقد مجلس بالقلعة حضره الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة وحضر شيخ الاسلام أمين الدين يحيى الأقصرائى وجماعة من مشايخ العلماء وكافة الأمراء وكان المجلس بالحوش السلطاني بقلعة الجبل ، فلما اكتمل المجلس قام القاضى كاتب السر أبو بكر بن مزهر فتكلم عن لسان السلطان ووجه الخطاب الى الخليفة والقضاة ومشايخ العلم قائلا : ان المال الموجود ببيت المال فى نقص كبير وأن سوار تناول على البلاد وقتل الرعية وعاث فى الأرض فسادا

وأن الأمر يحتم سرعة ارسال جيش لقتاله ليحمى البلاد وأن هذا الجيش محتاج الى نفقة وأن بيت المال خال ولما كان لدى كثير من الناس فائض كبير وأن الأوقاف كثرت على الجوامع والمساجد وأن رغبة السلطان أن يبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط والباقي يوضع في الذخيرة للاتفاق منه على الحرب • وقد مال الخليفة والقضاة الى ذلك الرأي ثم حضر شيخ الاسلام وكان قد تأخر عن الحضور فأرسل السلطان من يستدعيه، فلما حضر أعاد كاتب السرا ما سبق أن قاله في أول المجلس ، أنكر شيخ الاسلام هذا الكلام وصرح على مسمع من جميع الحاضرين بهذا المجلس بأنه « لا يحل للسلطان أخذ أموال الناس الا بوجه شرعى واذا نفذ جميع ما في بيت المال ينظر الى ما في أيدي الأمراء والجند وحلى النساء فيأخذ منه ما يحتاج اليه واذا لم يف بالحاجة ففي ذلك الوقت ينظر في المهم ان كان من الضروري في الدفع عن المسلمين ، حل ذلك بشرائط مقدره وهذا هو دين الله تعالى ، ان سمعت أجرك الله على ذلك وان لم تسمع فافعل ما شئت فاننا نخشى من الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ويقول لنا لم لم تنهوه عن ذلك وتوضحوه له الحق ، ولكن السلطان اذا أراد أن يفعل شيئاً يخالف الشرع لماذا يجمعنا ولكن بدعوة فقير صادق يكفيكم الله مؤونة هذا الأمر كله » ثم قام شيخ الاسلام « وأبجيه * » السلطان وانقض المجلس •

* أى أخذ السلطان •

وعندما صعد القضاة في المحرم سنة ٨٧٣ هـ لتهنئة السلطان
بالعام الجديد أمر السلطان بعقد مجلس لشراء ممالك الظاهر
خشقدم فاشترى من الممالك الكتانية نحوًا من خمسمائة مملوك
بعشرة آلاف درهم لكل منهم وذلك بعد أن عين وصيا على
الظاهر خشقدم وهؤلاء الممالك هم الذين عرفوا بالأشرفية *

وفي مستهل ربيع الآخر سنة ٨٧٣ هـ صعد القضاة لتهنئة
السلطان بالشهر فتكلم معهم في المجلس في قطع الجامكية
(مرتبات) العجزة من الجند والنساء وأخذ يشكو للقضاء من
نقص المال في الديوان وخراب البلاد وصار يدعو على نفسه
بالموت حتى يستريح مما هو فيه من التعب وطال الكلام في
المجلس وانتهى بلا طائل وانصرف القضاة ونفذ السلطان رأيه
عندما فرق الجامكية في هذا الشهر بنفسه وجلس على الدكة
وقطع عدة جوامك من العجزة والجند والأيتام والنساء وكان
السلطان أول من جلس من الملوك لتفرقة الجامكية *

وفي ربيع الآخر سنة ٨٧٥ هـ صعد القضاة إلى القلعة
لتهنئة بالشهر وعندما أرادوا الانصراف تكلم معهم السلطان عن
انحراف محراب جامع أحمد بن طولون عن جهة القبلة فقال
كاتب السر هذا الجامع تحت نظر قاضي القضاة الشافعي ، فقال
القاضي ، ينبغي أن يتغير هذا المحراب ويجدد غيره إلى جهة
القبلة ويكتب عليه اسم السلطان ، ولكن شيئًا من ذلك لم يتم *

وفي شهر ربيع الآخر سنة ٨٧٦ هـ صعد القضاة الأربعة
وشيخ الاسلام لتهنئة السلطان بال شهر وكان المؤرخ الجوهري
حاضرا مع النواب ، ووقف شخص للسلطان يشكو القاضى
الشافعى بسبب خان السبيل الواقع تحت نظره وأنهى أن الخان
مسجد وأن الجمالين جعلوه مخزنا لمتاع الجمال وأنهم يجهزون
فيه حاجياتهم وعندما منعهم من ذلك تعصب عليه جماعة وأحضروا
له رسلا من عند القاضى الشافعى ونائبه ، وأخذ يشكو وقال :
« أطلع الى الله » ، وأراد القاضى المالكى أن يطبق عليه الشرع
بسبب ذلك ولكن زملاءه منعه من ذلك خشية أن يقول
السلطان انهم تعصبوا عليه . حدث كل ذلك بجامع القلعة ،
ولما طلبهم السلطان دخلوا الى الحوش السلطاني وهنؤوه
وجلسوا فقال ابن مزهر كاتب السر لقاضى الحنفية : عرفت
السلطان عن وقف بنت يشبك أن أقبردى أثر عليكم حتى قررتموه
نائبنا عنكم وأنه لم يصرف لأحد من المستحقين شيئا ، ولم
يطلعكم على حساب الوقف ، وأن سيدى عبد البر الذى توجه
الى حلب لم يتكلم على الوقف المذكور ، فلما سمع السلطان ذلك
احتجز أقبردى وأمر بتجهيزه اليكم لتتظروا فى مصلحة المستحقين
وتعمروا التربة من الفائض .

وعندما وقف حفدة السلطان اينال للسلطان فى ٢١ جمادى

الأولى سنة ٨٧٦ هـ هم وأرباب الوظائف بمدرسة جدهم (٣٨) وأظهر كل منهم فتاوى بخط الشيخ أمين الدين الأقصرائي والشيخ محيي الدين الكافيجي ، والشيخ قاسم الحنفي ، أمر السلطان كاتب السر ابن مزهر أن يحضر قضاة القضاة والمشايخ الذين افتوا بينهم الى مجلس السلطان في الخامس والعشرين من الشهر وفي اليوم المحدد سعد قضاة القضاة الثلاثة ونوابهم ، وكان الجوهري المؤرخ حاضرا وحضر اثنان من نواب الحنفية ، والشيخ أمين الدين الأقصرائي والشيخ قاسم وأنباعهم ، وجلسوا بالحوش السلطاني بالمصطبة الجديدة التي أنشأها السلطان في آخره . وجلس الشيخ أمين الدين تحت المالكى ، والشيخ قاسم تحته وجلس من يسار السلطان القاضي الحنفي وتحته الشيخ بدر الدين بن القطان ، وتحته الخطيب الحنبلي والشيخ خير الدين الشنسى ، وبقية الناس خلفهم ، وامتلات المصطبة من القضاة ونوابهم والفقهاء خصوصا أتباع الشيخ أمين الدين ، وأبطأ الشيخ محيي الدين الكافيجي وطال انتظاره فأرسل اليه السلطان رسولا ، وسأل السلطان الحاضرين عن فتواهم فقالوا : الحق معنا ونحن أفتينا بالمذهب وصار أتباعهم يقولون الكافيجي غلب وهرب .

(٣٨) المقصود بها مدرسة وجامع السلطان اينال ، هذا وما زالت تلك المجموعة باقية بالقرافة الشرقية (جباة الغفير بالعباسية) .

وتكلم الشيخ بدر الدين بن القطان مع السلطان بأن
متحصل الخروبية (٣٩) التي يدرس بها لا يفى الثلث وأن الجابى
يسقط وطلب مرسوم السلطان لكاتب السر أن يرسل مرسوما
للجابى الا يطالب الا بمقتضى الشرع ، فأمر السلطان بذلك .
ثم سأل السلطان عن الناظر على هذه المدرسة فقال ابن القطان :
القاضى الشافعى ، فالتفت السلطان اليه ، وقال له : أخبرت
الأوقاف مرتين فصار الشافعى « فى هيئة الأموات » على حد
قول الجوهرى المؤرخ وأخذ ابن مزهر يتلطف بالسلطان حتى
هدأ غضبه .

حضر الكافيحي ومعه ستة من طلبته واستقبله الدوادار
الثانى وساعده وحمله من ابطه حتى وصل به الى السلطان ، فقام
له كل من فى المجلس وعانقه السلطان وأكرمه فجلس تحت قاضى
الحنفية المحب بن الشحنة ، فسأله السلطان أنت أفيتت فى
الادخال أو فى الاخراج ، قال : لا ، انما سئلت عن لفظ من
وكلما فأفيتت بانهما عام (*) . فقال جماعة الشيخ أمين الدين
الاقصرائى مرحبا بالوفاق ، اقرءوا الفاتحة وعزموا على الانصراف

(٣٩) المقصود بها احدى المدارس الخروبية وكان عددهما ثلاثا .

* المقصود بذلك الادخال والايخراج فى الوقف لمن شاء وكلما أراد كما
هو واضح من سياق الحديث الذى أورده الجوهرى ورأينا أن نثبت بنصه إذ لم
يرد فى ابن اياس ويلاحظ أن النص متغش فيه العامة .

فقال السلطان : الى أين تذهبون ؟ ثم التفت الى الشيخ محيي الدين وسأله ، قولك هذا عام ؟ أولاد اينال يجوز ادخالهم واخراج غيرهم ؟ فقال : نعم . فالتفت الى الشيخ أمين الدين وقال : لو أقمتهم الى المغرب ، ما فارقتمكم ، ما الجواب عن ذلك ؟ فقال الشيخ قاسم وغيره من الحاضرين هذا خاص بأهل المدرسة ، فالتفت الشيخ محيي الدين للسلطان والداودار ولقاضي القضاة الحنفى : هذا الرجل يعنى قاسم الحنفى لا يعرف النحو ولا اللغة ولا الأصول ولا الفقه ، انما يعرف الحيل وهو محجور عليه فى الفتوى ، لأنه يأخذ عليها رشوة وهذا يسمى « فقى ماجن » وقد ألقت هذا الكتاب وأخرج كتابا فيما كان وقع بينه وبين الشيخ قاسم من الكلام قبل هذا ، وأعطاه للداودار الذى أعطاه بدوره للشيخ قاسم ، فقال : أنا ما قصدته بشيء ، وأحضر كتاب الوقف وقرأه ابن مزهر بين يدي السلطان ، ومضمونه أن السلطان الظاهر جقمق وقف على مدرسة اينال وقفا ، وجعل النظر فيه لابن اينال وجعل له أن يدخل من شاء ويخرج من شاء كلما بدا له . . فقال السلطان هذا كتاب الوقف فما جوابكم عن ذلك . فقال الشيخ محيي الدين للشيخ أمين الدين أنت رجل مفتى وعالم وأبو حنيفة وأبو يوسف كانا يتناظران فى المسألة الواحدة مرات ، فلا أنت أبو حنيفة ولا أنا أبو يوسف ، هذا المقام من أى العموم ، فقال من عموم

الأفعال والا من عموم الأوقات والا من عموم الأقوال ؟ فقال :
هذا من عموم الأوقات فتبسم الشيخ محيي الدين وقال : هذا
العلم ! ، أهذا من عموم الأفعال فقال أنا قلت لا من عموم
الأفعال وسمع السلطان وسمع الحاضرون . ثم قال
له : هذا التخصيص الذي تدعونه من أى تخصيص ،
فأجاب بشيء ، فقال هذا تقييد ، وفرق بين التقييد
والتخصيص واستمر البحث الى أن قالوا : ان السلطان اذا
أوقف وقفا من أراضى بيت المال لا يجوز له فيه شرط ولا زيادة
ولا نقصان ولا ادخال ولا اخراج . فقال الشيخ محيي الدين
هذا القول بخلاف ما يقول ، وأخرج كتابا قرأه ابن مزهر فقال
الشيخ قاسم النقل بخلاف ذلك ، وهو فى قاضى خان - فقال
قاضى القضاة الحنفى اطلعت على قاضى خان وليس فيه ذكر
شرط ولا زيادة . قالوا : مفهومه ، قال الشيخ محيي الدين
المفهوم عندنا ليس بحجة . فقالوا له : مفهوم الدليل لا مفهوم
الكتابة فقال لهم : هذا محكم ، ثم قال الشيخ محيي الدين :
هذا الوقف محكوم به ، والقاضى اذا حكم عندنا فى شيء ولو
كان زورا ينفذ ظاهرا وباطنا ، فثار عليه جماعة الشيخ أمين الدين
وصار الشيخ قاسم يقول له : أنت ما تعرف هذه المسألة فى كتاب
بل لا وقت عليها ، وصار علاء الدين الميمونى نائب الحنفى
راكبا على كنفى الشيخ أمين الدين والشيخ قاسم وهو من خلفهما

وتكلم الشيخ محيي الدين بما يليق وطلب سماع كلمتين منه
ولكن السلطان أمره بالسكوت فسكت وثارَت ثائرة المجلس •
وقام السلطان وأمرهم ألا ينصرفوا حتى ينتهوا من هذه المسألة
وانصرف الشيخ أمين الدين والشيخ قاسم لقضاء حاجتهم ونسأل
الشيخ عثمان المقسي ونسأل قاضي القضاة الحنفي عما قاله
المشايع من أن السلطان اذا اقطع أرضا من بيت المال هل له
زيادة ونقص وادخال واخراج أم لا ؟ وأمره القاضي الحنفي
بالدخول الى وسط الحلقة فجلس بجانب ابن مزهر والد الدوادار
الثاني وصار يتكلم بصوت مرتفع بأن كلام الشيخ في العموم
لا منازع فيه • ثم حضر السلطان وطال النزاع • وعند ذلك
سئل القاضي الحنفي عن وجه الحق مع من في هذه القضية فقال
مع الشيخ محيي الدين ولو كان الظاهر حيا ورأى أن ابن اينال
أخرج وقفه ، ثم قيل لقاضي الحنيفة أنت امام المذهب احكم في
هذه القضية فقال : اذا أفتى المفتيان ليس للقاضي أن يحكم حتى
يتبين له الراجح من المرجوح ثم ان القاضي المالكي قال : اذا
اختلف الأمر مذهبا السلطان يقضى في القضية فحولها القاضي
الحنفي للمالكي ولكنه تنحى ثم قال القاضي الحنفي المصلحة أو
ما يشبه ذلك في المصلحة فقال الشيخ أمين الدين مجيبا له هذه
دورتكم •• فقال القاضي الحنفي ليس هذا بصحيح وليس لي
فيه غرض وصدق القائلون على قول القاضي ثم التفت القاضي

الحنفى له ، وقال هذه فتاوى يخطك احدهما فيها جـواز
الادخال والاخراج* والأخرى بخلافها فأمره السلطان بقراءتها
فقرأهما القاضى الحنفى وتطور الموقف ثم سأل السلطان عما
أخرج عن أهل المدرسة •• فقيل له عشرة آلاف درهم فى كل
سنة وسأل عما أوقفه السلطان على أهل المدرسة أو عن قوم
يحضرون فقال بل عليهم وغالبهم لا يحضر وتكلم الجلالى المتكلم
على المدرسة فقال له السلطان : أنت مدعى عليك •• ثم أمر
السلطان أن يشتري للمدرسة من ماله رزقه تغل عشرة آلاف
درهم فى كل سنة لوقفها عليهم عوضا عما أخرج ابن اينال
لأولاده فقالوا بل يكون ذلك لأولاد ابن اينال فغضب السلطان
من ذلك ، وقال : أنا لا أحب التعصب ، فقال القاضى الحنفى
ينفذ قول السلطان ودعا القضاة للسلطان وانصرفوا فسلم الشيخ
محيى الدين أولا وانصرف ثم سلم الجماعة حتى الجلالى فلكمه
السلطان فى رأسه وقال له : أنت لا تخرج زكاه •

وفى رجب سنة ٨٧٦ هـ طلع القضاة الثلاثة ما عدا الحنبلى
لخلو الوظيفة ومعهم الجوهرى المؤرخ وكان طلوعهم تنفيذا
لمرسوم السلطان باستدعائهم وللتهنئة بالشهر وجلسوا بالجامع
ينتظرون السلطان واتفق أن القاضى فتح الدين السوهاجى طلب
من امرأة كانت عنده فى مخاضة أن تقف للسلطان وتسأله أن
يكون دعواها عنده فلم يتمالك السلطان نفسه من الغضب

وأخذ يعدد له مساوئه عندما رآه - ثم اجتمع بالقضاة ونوابهم
 بالحوش السلطاني وكان القضاة والنواب في خوف من السلطان
 ورجوا الشيخ سراج الدين العيادي الشافعي أن يتحدث مع
 السلطان بشأنهم ، وقد تحدث مع السلطان ونصحه بعدم اهانة
 القضاة وذكره بما حدث في عهد أسلافه وختم مجلسه مع
 السلطان قائلا ان الناس من باب المدرج (٤٠) الى آخر باب
 النصر (٤١) اجتمعوا لينظروا ما يفعل بالقضاة ومن ينزل منهم
 محبورا ومن ينزل منهم مكسورا ثم دعا للسلطان وانصرف *
 وأخذ ابن مزهر ينادي عليهم واحدا واحدا فلما نادى على
 القاضي فتح الدين السوهاجي غضب السلطان غضبا شديدا
 وقال له : أنت تعمل الحر عبدا والمسلم كافرا والحق باطلا
 وغضب أيضا على أبو بكر الابيشيهي * ثم أخذ في تأنيب ابن امام
 الشيخونية وسأله عن ابنه هل هو قاض ؟ فما وسعه الا الانكار *
 وسأل القاضي الحنفي عن من عمل كمال الدين بن الطرابلسي
 قاضيا ثم سب وعزل الطولوني السمين ، وقال لابن ظهيره عندما
 وقع نظره عليه : « أنت مباشر لص * حرامي » ، ولم يتعرض

(٤٠) باب المدرج : هو الباب الاصل للقلمة من انشاء صلاح الدين الأيوبي ،
 ومازال قائما بجوار الباب الجديد الذي أنشاه محمد علي والذي يدخل منه الآن
 القلمة .

(٤١) باب النصر : أحد الأبواب الفاطمية للقاهرة .
 * حافظنا على ألفاظ الجوهرى الذى كان يغلب على كتابته
 اللغة العامية .

للجوهرى المؤرخ كما ذكر ذلك عن نفسه * ولما رأى بدر الدين
الدميرى كتكوت قال له : أنت أيضا قاضى فرد بأنه قاض منذ
عشرين عاما فقال له كفاك : استرح ، ولم يتعرض للمالكية وذكر
الحنفى للسلطان أنه سرعان ما يعزل أى نائب من نوابه اذا
ما ترمى الى سماعه أى شىء عنه *

وفى العاشر من رجب سنة ٨٧٦ هـ وقف للسلطان شيخ
يدعى عثمان الحطاب مقيم بالمدرسة السيفية (٤٢) المجاورة لسوق
الجوار وادعى أن تغرى بردى المحمودى أخذ منها ابوانا جعله
فى ريعه واصطبله وكان عثمان هذا تقيا صالحا عمر بالمكان
المذكور عدة أماكن وجدد به منبرا وعنده فقراء ويصل اليه البر
من الأمراء ومن السلطان عندما كان أميرا وليس للمدرسة كتاب
وقف أخذ المحمودى منها قطعة أرض مملوءة بالتراب باذن من
قاضى القضاة ابن حجر وأخذ خطه باجارتها سنين وثبت ذلك *
ثم استبدالها بخط قاضى القضاة بدر الدين العينى وطلب من
كاتب السر ابن مزهر ، ومن الدوادار الثانى السيفى تنيك أن
ينظر فى هذه القضية بمقتضى الشرع ، ولما لم يحدث شيئا
وقف عثمان للسلطان الذى احتد لعدم تنفيذ أمره ويبدو أن ابن
مزهر لم يفعل شيئا لأن أحد نوابه أخ لمباشر الوقف وعزم
السلطان على التوجه بنفسه وذهب الى المكان وجلس السلطان

(٤٢) المدرسة السيفية : كان موقعها بأول شارع الصاغة .

بالمدرسة وطلب قضاة القضاة وحضر القضاة سريعا بدون نواب
ولاكت السنة الناس القضاة فنسبهم البعض الى خراب الأوقاف
أو بيعها ونسبهم البعض الآخر الى بيع ايوان المدرسة ولما وصل
السلطان للمدرسة طلب كتاب الوقف وكان في غاية الحده وأحضر
كتاب الوقف والاجارة ، وأمر السلطان أن يدعى على وكيل
القاضي الحنفى نور الدين الاينالى لوضع أيديهم على ايوان
المدرسة السيفية وانشائهم مكانه ريعا واصطبلا وطالب بهدمه
واعادته للمسجد ثم ركب السلطان وأمر بالألا ينفض المجلس حتى
تحل المسألة ولكن شيئا لم يتم بعد النزاع الذى دب بين المالكى
والشيخ عثمان وخطيب المكان « وأمر السلطان بعقد مجلس
فى الخامس عشر من الشهر فى المدرسة وثبت أن المكان من
المدرسة وشهد بذلك الشيخ عز الدين السنباطى وأنه صلى
فيه ودرس فيه وأنه اغتصب بغير حق وبلغ السلطان ذلك فأمر
بالهدم ونفذ أمر السلطان » ♦

وفى شوال سنة ٨٧٦ هـ عقد مجلس حضره قضاة القضاة
ونوابهم بالقلعة مع السلطان بسبب برهان الدين العجلونى الذى
أحضر من القدس ، وقضيته أنه مستأجر من وكيلين عن أميرين
بالشام قطعة أرض مدة معلومة وحكم بها حاكم شرعى ،
ولما توجه لزراعتها وجدها مزروعة لغيره ، فأخذ من زراعتها
مقاسمة على عادة البلاد الشامية ، وجرت بينه وبين الأميرين

ووكيليهما مشاحنات انحاز فيها معهم ناظر القدس ونوابه وحضر الى القاهرة يرفع شكواه ، ولما طلب منه أن ينزل من المقعد ويسمع دعوى غريمه عليه خرج عن وعيه وتفوه بألفاظ مست السلطان ورجال الدولة وأمر السلطان بعقد مجلس وتم فيه مؤاخذه ابن العجلوني وحكم عليه بدفع المال المستحق ، وقام كاتب السر بدفع ما عليه من ماله •

وفي رجب سنة ٨٧٧ هـ سعد القضاة للتهنئة بالشهر وصعد معهم الشيخ أمين الدين الأقصوائى وتكلم السلطان مع الشيخ أمين الدين عن الأحوال مع حسن الطويل والحاجة الى المال وأجاب الشيخ أمين الدين بمثل ما تحدث به فى المجلس الذى سبق حرب شاه سوار ، ورفض طلب السلطان فى الحصول على المال •

وفي رجب سنة ٨٨٦ هـ سعد القضاة للتهنئة بالشهر فتحدث السلطان عن عدم تنفيذ حكم بعض نواب المالكية ولا بن العيني فى تركة شرف الدين بن كاتب غريم على الرغم من مضى وقت كبير على ذلك وطال الحديث وغضب السلطان وأراد ابن مزهر أن يساعدهم فعزله السلطان وعزل القاضيين الشافعى والمالكي وعين السلطان بدلا منهما وظل ابن مزهر فى داره ١٨ يوما منفصلا عن كتابة السر ثم توسط له الأمراء لدى السلطان حتى أعاده الى وظيفته •

وفي المحرم سنة ٩٠٠ هـ صعد القضاة للتهنئة بالعام الجديد
وصعد أيضا الشيخ جلال الدين الأسيوطي فلما جلس سأله
السلطان عن أى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم
يفعلها ، فلم يجبه السيوطي وكان لدى السلطان كتاب يسمى
حيرة الفقهاء ، ثم أجاب السيوطي ، بعد ذلك بأن السلطان قصد
الأذان فانه سنة ولم يفعله والأصح أنه أذن في وقت وأورد في
ذلك الحديث وعمل في هذه المسألة كراسة مطولة .

رحلات السلطان :

تكرر نزول السلطان من القلعة ليلا ونهارا حتى خرج عن
الحد على حد قول ابن اياس المؤرخ المعاصر ، وحتى ترك بعض
المؤرخين ذكر ركوبه ونزوله من القلعة ولم يحصوا ذلك ، بعد
أن كان ركوب السلطان فيما مضى نادرة تؤرخ في التواريخ .
وعاب ابن تغرى بردى المؤرخ الذى عاصر أوائل عهد ذلك
السلطان ركوبه قائلا : « انه لم يبت أمرا ولا ردع مفسدا »
ولم تظهر لزيارته للأقاليم التى زارها أية نتيجة بل شمل
الخراب أغلب القرى من النهب والنفقات ، فضلا عن أخذ
الهدايا ، وأن المفسدين لما علموا منه ذلك طمعوا فى الناس وزاد
شرهم وقطعوا الطريق حتى أن بعضهم تجرأ بفعل تلك الأفعال
بقرب خيام السلطان بل تعدي على بعض حواشيه وأعوانه ،
وأضاف أن ذلك كان سببا فى طمع العرب حتى أن الناس

يشوا من زوال ظلم العرب لهم . هذا بينما يعال الجوهري المؤرخ وأحد المعاصرين لذلك السلطان - بأن السلطان كان في ضيق من فتنة شاه سوار وغيره وأنه أراد أن يظهر قوته حتى لا يطمع فيه أحد . لم يكن ركوب السلطان على كثرته للنزهة والترويح عن النفس فحسب ، بل كان غالبية لتفقد أحوال الدولة المترامية الأطراف ، من حدود الفرات الى بلاد النوبة بأقاليمها المختلفة ، بالإضافة الى تفقد أحوال الرعية ومعرفة آرائهم في السلطان نفسه عندما كان ينزل اليهم متخفيا ، مما كان سببا في رفع الكثير من المظالم ورد الحقوق لأصحابها ، هذا فضلا عما صعب تلك الرحلات من اقتراح مشروعات للتعوير ، والبر والمعروف ، صدرت أوامر السلطان بتنفيذها بل أخذ يتردد عليها ليباشر العمل فيها بنفسه ، مما كان له أكبر الأثر ، في انجازها على الوجه الأكمل ومعظمها أعمال عم بها الخير أنجاء البلاد ، وفي أثناء تلك الجولات كان السلطان يعود المرضى من أمرائه وفي ذلك وفاء كبير لأولئك الذين عملوا معه ابان حكمه . ولم ير السلطان أى حرج في النزول الى قواد حملاته العسكرية ليلقى اليهم بتعليماته وليودعهم ويشجعهم على الرغم من مخالفة ذلك لتقاليد المملكة .

كان أول ركوب للسلطان في شعبان سنة ٨٧٢ هـ عندما نزل من القلعة الى الميدان ودار حول القلعة وعاد وطلع من باب السلسلة ، وفي هذا الشهر أيضا نزل السلطان مرتين أولاها

الى القرافة وقد زار فيها الأولياء وعاد من طريق قناطر
السباع (٤٣) ، ودخل دار سودون البرقى أحد أمراءه وعاده في
مرضه وأقام عنده ساعة ثم عاد الى القلعة ، وجدير بالذكر أن
هذا المرض هو الذى مات بعده سودون بفترة قصيرة ، وثانيهما
نزوله الى القرافة وزيارة ضريح الامامين الشافعى والليث بن
سعد رضى الله عنهما ثم سار حتى وصل الى بركة الحبش (٤٤)
ولعب هناك بالكرة ثم عاد الى القلعة ، وأعجبه ضرب تانى بك
المعلم بالكرة فأنعم عليه .

وفي صفر سنة ٨٧٣ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى
طراو العدوية على سبيل النزهة وأقام هناك الى آخر النهار
ومدت له الأسمطة الحافلة .

وفي ربيع الأول سنة ٨٧٣ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه
الى خانقاه سرياقوس (٤٥) ونصبت له الحيام وأقام يومين

(٤٣) قناطر السباع : احدى القناطر التى كانت قائمة على الخليج بالقاهرة
وكان موقعها بجوار جامع السيدة زينب وسميت بذلك الاسم لوجود شاره السلطان
بببرس وهى الأسد عليها .

(٤٤) بركة الحبش : كانت احدى متنزهات مصر ، وكانت تقع فى نهاية
القرافة ، وما زالت موجوده بناحية البساتين وان جف ماؤها ، وبها ماخذ سقاية
أحمد بن طولون التى ما زالت قائمة .

(٤٥) خانقاه سرياقوس : تطلق حاليا على ناحية الخانكة احد مراكز محافظة
القليوبية ، وقد نشأت حول خانقاه (مكان المتصوفة) التى بناها الناصر محمد
ابن قلاوون بالقرب من سماسم سرياقوس ، وقد زالت الخانقاه من الوجود ، وظل
اسمها - وقد حرف - باقيا يطلق على تلك المدينة .

ومدت له الأسمطة الحافلة ، وحضر مع السلطان قاصد (مبعوث)
حسن الطويل وقاصد ملك الهند ، وانشرح السلطان ، ثم عاد
الى القلعة •

وفي شوال سنة ٨٧٣ هـ نزل السلطان الى قليوب ثم زار
قناطر أبي المنجا (٤٦) ثم توجه الى تربة يشبك الدوادار ، فأقام
بها الى بعد العصر ثم عاد الى القلعة •

وفي ذى القعدة سنة ٨٧٣ هـ نزل السلطان وتوجه الى طرا
فأضافه فيها محمد بن البلاح فأقام الى آخر النهار وعاد •

وفي شهر ذى القعدة سنة ٨٧٣ هـ سافر السلطان على
حين غفلة الى بحيرة تنيس وكان معه من الأمراء المقدمين بقوق
الناصرى وبعض الأمراء العشرات وبعض العسكر ، واستمر
عدة أيام وانقطع خبره عن الناس مدة • ولما قرب عيد الأضحى
بعث برسوم يطلب فيه احضار قاضى القضاة الشافعى ولى الدين
الأسيوطى ليصلى به صلاة العيد بفارسكور ، وخرج القاضى
مسرعا وأخذ معه بعض هدايا من الحلوى للسلطان وذهب الى
فارسكور حيث عيد مع السلطان وصلى به صلاة العيد • وقد
قطع السلطان فى هذا العيد أضحية جماعة من أولاد الناس

(٤٦) قناطر أبى المنجا : مازالت هذه القناطر قائمة حتى الآن بالقرب من
قرية ميت نامه بين شبرا و قليوب وقد انشأها الظاهر بيبرس وجدوها قايبتاي
ومازال نقش كليهما موجودا عليها حتى الآن •

والفقهاء والنساء حتى الخوندات وكثير من الجند * وفي هذا العيد كان العسكر غائبا في حرب شاه سوار والسلطان غائب عن القاهرة وكان الشعب في حزن لفقد بعض ذويهم بسبب الطاعون بالإضافة الى قطع أضحية البعض وهي الأضحية التي كانت مرتبه في الديوان السلطاني من قديم الزمان * واستمر السلطان غائبا نحو من أربعين يوما وطاف عدة بلاد وقدمت اليه هدايا من مشايخ العربان وغيرهم من خيول ومال وغير ذلك ، ثم عاد السلطان الى بلبيس ، ولما وصل الى الخانقاه خرج أرباب الدواة لملاقاته وزينت القاهرة زينة حافلة لقدمه * وفي التاسع عشر من الشهر دخل السلطان القاهرة من باب النصر في موكب حافل وقد حمل القبة والظير على رأسه المقر السيفي برقوق الناصري أحد المقدمين وذلك لغياب الأتابك أزبك في حرب شاه سوار ولاقاه الشعراء وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير من عند مدرسة السلطان شعبان (٤٧) بالتبانه الى القلعة ونثرت على رأسه خفاف الذهب والفضة وسار أمامه الأمراء الرعوس النوب من بين القصرين (٤٨) الى القلعة واصطفت له المغنيات على

(٤٧) مدرسة السلطان شعبان : مازالت المدرسة قائمة بشوارع العبانه بالدرب الأحمر ، وهي من انشاء السلطان شعبان لوالده .

(٤٨) بين القصرين : مازال هذا الشارع موجودا بحي الجمالية حتى الآن وقد اطلق على القضاء الذي كان موجودا بين القصرية الفاطمية ثم اطلق على نفس القضاء الذي كان واقعا بين قصرى بشقال وبيسرى من أمراء الماليك .

الدكاكين واستمر في ذلك الموكب حتى طلع القلعة . وفي أثناء تلك الرحلة جاءت الأخبار بان قاصد حسن بك ابن قرابلك سيصل الى القاهرة ومعه رأس أبو سعيد ولما وصل القاصد الى الريدانية أمر السلطان بأن يجلس بالاشرفية (٤٩) بخط العنبرانيين وأن ينظر موكب السلطان من هناك ورأى القاصد فعلا موكب السلطان . ولما وصل السلطان القلعة جلس على الدكة بالحوش السلطاني بالقلعة واستدعى ذلك القاصد والواقع أن السلطان أراد أن يظهر للقاصد ولسيده عظمة الدولة المملوكية وسلطانها ومواكبه . وفي أثناء الرحلة عاقب السلطان بعض العصاة من العربان المفسدين ولما عاد الى القاهرة نفذ ما وعد به الناس من تعيين برقوق الناصري أحد المقدمين في كشف التراب (٥٠) بالشرقية مضافا اليه كشف الدم (٥١) . وتوجه برقوق الى الشرقية وعين له نائبا في كشف الدم ، وقد استطاع هو ونائبه أن يقمعا المفسدين ويضربون على العرب المفسدين بيد من حديد .

(٤٩) الأشرفية : المقصود بها مدرسة السلطان برسباي والتي ما زالت موجودة في أول شارع الصائغ وكان مكانها يعرف قديما باسم العنبرانيين .
(٥٠) كشف التراب : المستول عن الجسور .
(٥١) كشف الدم : المستول عن البحث عن القتل .

وفي جمادى الأولى سنة ٨٧٤ هـ نزل السلطان الى الرماية
ببركة الحاج (٥٢) وعاد من يومه وطلع من بين التراب .

وفي جمادى الآخرة سنة ٨٧٤ هـ نزل السلطان وتوجه الى
خليج الزعفران على سبيل النزهة وأقام هناك ثلاثة أيام ثم عاد
الى القلعة .

وفي ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ خلع السلطان الصوف ولبس
البياض وابتدأ بضرب الكرة مع الأمراء وفي نفس الشهر انتهى
ضرب الكرة وأضاف السلطان الأمراء .

وفي ربيع الأول سنة ٨٧٥ هـ ركب السلطان وتوجه الى
طرا وفي نفس الشهر نزل الى المطرية ونصب هناك الخيام ونزل
معه الأمراء وأقام هناك أياما على سبيل النزهة وبلغ ما صرف على
الأسمطة التي أقيمت هناك ألف دينار .

وفي جمادى الآخرة سنة ٨٧٥ هـ نزل السلطان من القلعة
وتوجه الى الخانكة ثم سار الى العكرشا وهو ركب الهجن ،
ثم عاد الى القلعة بعد أيام .

وفي رجب سنة ٨٧٥ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى
قناطر العشرة (٥٣) وأقام هناك سبعة أيام وتوجه الى الأهرام

(٥٢) بركة الحاج : أول منازل الحج من جهة القاهرة .

(٥٣) قناطر العشرة : كانت هذه القناطر بشوارع الهرم الحال .

سائرا على قدميه وحوله الأمراء ونصب له أشاير على رءوس الأهرام • ومدت هناك الأسمطة الحافلة ، وأخذ ابن رحاب المعنى وبقيّة المعنين ينشدون كل ليلة ، وظل السلطان هناك سبعة أيام توجه بعدها الى الفيوم • فلما دخلها زينت له ، وقدم له الكاشف ومشايخ العربان جملة هدايا ثم عاد الى القلعة بعد أن مكث في هذه الأسفار نحوًا من عشرين يوما •

وفي ذى القعدة سنة ٨٧٥ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى صقيل ، وقد أضافه فيها القاضي كريم الدين بن جلود كاتب الممالك ، فأقام هناك الى آخر النهار ثم عاد الى القلعة •

وفي المحرم سنة ٨٧٦ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى قرب شبين (٥٤) القصر وكان معه الأتابكي أزبك وجماعة من الأمراء ، وفي أثناء سيره شب فرس الأتابكي أزبك على فرس السلطان فرفسه فجاءت الرفصة في ساق السلطان فانكسرت فنزل بشبين وهو في غاية الألم ، فأرسل يطلب محفة ليعود فيها الى القاهرة ، وعندما وصلت الأخبار الى القاهرة كثرت فيها الشائعات بسبب عودة السلطان في محفة ، وكانت القاهرة قد زينت لقدوم السلطان ، فلما دخل القاهرة تحت جنح الليل هدت هذه الزينة ، وانطلقت الاشاعات ، حتى نزل الوالى ونادى بالأمان وسلامة السلطان ، وأمر باعادة الزينة كما كانت فزينت

(٥٤) شبين القصر : هي شبين القناطر الحالية .

القاهرة ثانية ، ثم خرج السلطان وجلس على الدكة وعلم على
المراسيم. وجهاز المراسيم للبلاد الحلبية بسلامته مما ألم به حتى
لا تضطرب البلاد .

وفي ربيع الآخر سنة ٨٧٦ هـ نزل سلطان الى خليج
الزعفران على سبيل النزهة وكان معه الأتابكي أربك وجماعة
من الأمراء ، فأقام هناك الى آخر النهار ، وفي طريق عودته وجد
عند الضيائية جنازة امرأة غريبة ليس معها أحد من الناس سوى
الحاملين فنزل عن فرسه ومن معه من الأمراء ، فصلى عليها على
قارعة الطريق وأم الجماعة الذين حضروا الصلاة ، والحق أن هذه
مكرمة توضع في سجل حسنات السلطان .

وفي رجب سنة ٨٧٦ هـ أخذ السلطان في النزول الى
الأسطبل كل يوم سبت وثلاثاء ، وكثرت المحاكمات وتزايدت
الشكاوى ومن نوادر ما حدث أن شخصا يقال له محمد القليني
اشتكى فأظر الخاص تاج الدين بن المقسى وكان السلطان متحملا
عليه ، فأمر بضربه بالمقارع بين يديه فجرده من ثيابه وضربه حتى
أدمى جوانبه ، وكان يوما شديد البرد ثم أمر بسجنه في البرج
بالقلعة فطلع ماشيا من باب السلسلة الى البرج مجردا من
ملابسه مكشوف الرأس والدم يسيل من جوانبه ولا شك أن
هذه من مساوىء السلطان .

وفي نفس الشهر نزل السلطان الى المطرية ثم عاد من على

قنطرة الحاجب فأذن عليه المغرب عندما وصل الى المدرسة الجيعانية بالقرب من بركة الرطلى نزل وصلى المغرب هناك ، وكان الامام فى الركعة الثانية فصلى مع الجماعة ، فلما فرغت الصلاة وجد الامام صبيا أمرد فأعاد الصلاة ثانية .

وفى صفر سنة ٨٧٧ هـ توجه السلطان الى دمياط ورشيد وتوجه وغيرها من البلاد ، وركب البحر فى عدة مراكب بصحبة الأتابكى أزيك والأمير أزيك اليوسفى وغيرهم من الأمراء ، واستغرقت هذه الرحلة ثلاثة عشر يوما .

وفى جمادى الأولى سنة ٨٧٨ هـ توجه السلطان الى طرا وأقام بها الى آخر النهار وعاد . وفى نفس الشهر نزل السلطان وتوجه الى خليج الزعفران ونصب هناك الخيمة التى أهداها له ملك الهند ، فأقام هناك ثلاثة أيام ، ووافاه هناك الأمير يشبك الجمالى رسول السلطان الى ابن عثمان فور وصوله لابسا خلعة ابن عثمان ومكاتبته تتضمن مودة ابن عثمان للسلطان .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٨٠ هـ أشيع بين الناس أن السلطان عزم على السفر بنفسه الى الشام ، فنزل الى الميدان الكبير بالناصرية وعرض الخيول هناك ثم توجه الى بولاق ونزل فى ضيافة شرف الدين الأنصارى ، ونزل السلطان فى الغراب (نوع من السفن) الذى أنشأه الأنصارى تحت داره وتوجه به الى شبرا ، ثم عاد وطلع الى القلعة

وفي جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ توجه السلطان الى طرا في ضيافة ابن البلاح ومن طريف ما حدث في هذه الضيافة أن ابن البلاح أحضر بين يدي السلطان قدورا مختومة بها شهد ففتحت منها قدر بين يدي السلطان وهو جالس على السباط ، فلما فتحت خرجت منها نحلة كبيرة ، وقصدت وجه السلطان ولدغته في جنين عينه فورم وجهه في الحال ورجع الى القلعة .

وفي جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ توجه السلطان بحرا في مائة مركب الى نغر دمياط ، وهذه هي السفرة الثانية ، ولما وصل السلطان الى نغر دمياط استقبله النائب وأعد له الأسطة الجليلة ، وأقام هناك عدة أيام وهو في أرغد عيش وتنزه في المزارع وتوجه الى مكان يصاد فيه السمك البورى ، ونزل في مركب صغير وعان كيف يصاد البورى ، وعاد الى القاهرة بحرا ، واستغرقت هذه الرحلة خمسة عشر يوما .

وفي رجب سنة ٨٨٠ هـ خرج السلطان على حين غفلة قاصدا السفر الى بيت المقدس ، وكان معه الأتابكى أربك ويشبك الداودار وآخرون من الأمراء ، والخاصكية وغيرهم ومكث بالقدس ثلاثة أيام نشر فيها العدل ، ثم زار الخليل عليه السلام وتصدق في القدس والخليل بستة آلاف دينار وأزال المظالم الحادثة هناك . ورتب أحوال الأمراء في غزة . ولما مر

بالتقرين (٥٥) أمر ببناء جامع وسبيل هناك وقدم له أعيان الناس في هذه الرحلة الكثير من الهدايا • ولما وصل الى قطيا خرج جماعة من الأمراء لاستقباله • وفي العشرين من شعبان وصل السلطان ودخل القاهرة في موكب حافل وأمامه الأمراء ، وخرج اليهود والنصارى وبأيديهم الشموع الموقدة واخترق القاهرة حتى طلع الى القلعة •

وفي ذى القعدة سنة ٨٨٠ هـ سافر السلطان الى الفيوم للمرة الثانية ، وكان معه الأتابكى أزيك ويشيك الداودار وجماعة من الأمراء المقدمين والعشرات ، وذهب السلطان ليرى ضيعة خاير بك من جديد التي أنشأها هناك وجعل بها طاحونا تدور بالماء •

وفي شعبان سنة ٨٨١ هـ نزل السلطان الى الرماية وعاد في موكب حافل ولم يمر من القاهرة وطلع من بين الترب وتكرر نزوله الى الرماية في هذا الشهر ثلاث مرات يسلك في كل منها نفس الطريق ، وذلك حتى لا يشكو له الناس من الفلوس الجدد •

وفي رمضان سنة ٨٨١ هـ أشيع بين الناس أن السلطان ارتدى زى المغاربة ونزل الى الجامع الأزهر وصلى به ، وكان

(٥٥) التقرين : إحدى قرى محافظة الدقهلية ، ومازال المسجد قائما بها •

يسال في بعض الطرقات الناس عن سيرة نفسه ووقع له مع
الناس في هذا الأمر أشياء غريبة وسمع نقد الناس لأفعاله .

وفي المحرم سنة ٨٨٢ هـ نزل السلطان ومعه جماعة من
الأمرء وتوجه الى العباسية والصالحية وكشف عن الجامع
والسبيل والحوض التي أنشأها هناك ، وأقام بالعباسية أياما ثم
عاد الى القلعة .

وفي يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ
عدى السلطان النيل الى الجيزة ولم يشعر به أحد من الناس ،
قاصدا التوجه الى الاسكندرية وسافر عن طريق البر وأرسل
معداته بحرا بالمراكب وسافر معه الأمرء وكاتب السر وغيرهم
وزينت له الاسكندرية عند وصوله واستقبله بها الملك المؤيد
أحمد بن الأشرف اينال وقجماس الاسحاقى نائب الاسكندرية
وتجمع الناس لرؤية السلطان ، فدخل السلطان فى موكب حافل
وحمل الأتابكى أزبك القبة والطير على رأسه والملك المؤيد بين
يديه وأمامه الأمرء والأعيان وأرباب الدولة ، ومن طريف
ما حدث أثناء تلك الزيارة أن سقط الطائر الذهب من فوق
القبة فنزل الأمير يشبك الدوادر من فرسه وثبت الطائر على
القبة ، وثر بعض تجار الفرنج على رأس السلطان ألف بندقى
ذهب فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض
وكاد السلطان أن يسقط من ظهر الفرس من شدة الزحام حتى

أدركه الأمير تمتاز رأس نوبة النوب وفي يده عصا فضرب بها الناس حتى نجا السلطان ومشى واستمر ذلك الموكب حتى خرج الى باب البحر فنزل بالمخيم الذي نصب له على ساحل البحر الملح ، ولم يوافق السلطان على فك أبواب المدينة وأمر بإبقائها على ما هي عليه ، وكانت العادة القديمة اذا دخل سلطان الى المدينة تفك أبوابها وتلقى على الأرض لحين رحيله عنها . ولما نزل السلطان بالمخيم أضافه النائب ، ثم خلع على الملك المؤيد وعلى النائب ورجعا الى دورهما وصحبتهما الأمراء ، فأقام هناك ثلاثة أيام ولعب الكرة في الفضاء ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه وأرسل اليه تجار الاسكندرية هدايا كثيرة ، وتوجه السلطان الى مكان المنار القديم الذي كان بالاسكندرية وأمر ببناء برج على أساسه القديم فبنى به برجا مازال موجودا حتى الآن ، ثم رحل السلطان عن الاسكندرية وتوجه الى ادكو ودمنهور وغير ذلك من البلاد واستمر ينتقل من مكان الى مكان للنزهة ما يقرب من أربعين يوما حتى عاد الى القلعة وجدير بالذكر أن السلطان لما عاد طلع من بين التراب .

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٨٨٢ هـ خرج السلطان فجأة وتوجه الى الصالحية ، ثم بعد أيام أشيع أنه توجه من هناك الى البلاد الشامية ، فتعجب الناس من ذلك ولم يكن معه من المماليك سوى أربعين مملوكا من خواصه وكان معه بعض أمراء

عشرات وبعض المباشرين وترك بالقاهرة الخليفة المستنجد بالله
يوسف والقضاة الأربعة والأتابكي أزيك ويشبك الدوادار وسائر
الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشرات وجميع العسكر .

وفي جمادى الآخرة حضر هجان من عند السلطان وعلى يده
مراسيم الى الأمراء بالقاهرة مضمونها أن السلطان توجه الى
البلاد الشامية ليكشف عن أمر النواب والقلاع بنفسه وأوصى
الأمراء بالريعية والجند خيرا .

وفي شعبان وصل هجان من عند السلطان وأخبر بأنه زار
طرابلس وحلب وأقام بها أياما وأنه متوجه الى الفرات ، ثم
حضر هجان ثان وعلى يده مراسيم للأمراء بالسلام وخطاب
للأتابكي أزيك يأمره فيه بأن يلبس الأمراء الصوف وأن يصرف
الكسوة للجند ، وصدع أزيك بالأمر وألبس الأمراء الصوف
كعادة السلاطين ، وفي رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن
السلطان مكث بالفرات أياما ثم عاد الى حلب ورحل عنها الى
حماء فلما دخلها مرض مرضا حادا ودخل دمشق على محفة ،
وكرت الشائعات بموت السلطان ، واضطربت القاهرة ، وأخذنا
كل أمير يعمل للوصول للسلطنة ، وبينما هم على تلك الحال
حضر خاصكي من عند السلطان ، وعلى يده عدة مكاتبات
للخليفة والقضاة الأربعة والأتابكي أزيك وبقية الأمراء وغيرهم
بما حصل له من توقعك في جسده ويشرهم بشفاؤه وعافيته ،

وعند ذلك ضربت البشائر بالقلعة وزينت القاهرة سبعة أيام وأظهر الناس الفرح والسرور بشفاء السلطان . ثم حضر هجان من عند السلطان ، وأخبر أنه خرج من الشام بعد ما جلس في القصر بالميدان وحكم بين الناس وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، ثم حضر هجان ثان وأخبر أن السلطان خرج من غزة متوجها للديار المصرية فخرج الأمراء لاستقباله ، ثم وردت الأخبار بوصوله الى قطيا . ووصل السلطان الى الصالحية في شوال وصلى صلاة الفطر وخرج الأتابكي أربك والأمير يشبك وبقية الأمراء للقاءه ، ولما وصل الى الخانكاه خرج القضاة والعسكر وزينت القاهرة ، ودخل السلطان القاهرة في رابع شوال من باب النصر وشق القاهرة والأتابكي أربك رافع القبة والطير على رأسه . وفرشت له الشقق الحرير من باب زويلة الى القلعة وثرثت عليه خفاف الذهب والفضة في عدة أماكن واستمر الموكب حتى طلع القلعة ، فلما طلع القلعة فرشت له خوند شقق حرير وأثواب مخمل من باب القلعة الى الحوش وثرثت عليه خفاف من الذهب والفضة واستقبله المغنون ونصبت الأسمطة ، وبعد الانتهاء من الاحتفال خلع السلطان على من كان مسافرا صحبته .

وفي ذى القعدة سنة ٨٨٢ هـ توجه السلطان الى الجيزة ورأى خيوله وأقام هناك أياما ، ثم توجه الى منوف وكشف عن جسورها وأمر باصلاحها وأقام هناك أياما وعاد الى الجيزة ،

ثم سافر من هناك الى الفيوم بدعوة من خاير بك من حديد
لمشاهدة البستان الذى أنشأه هناك وهذه ثالث زيارة له للفيوم،
وأقام السلطان عدة أيام بالفيوم فى أرغد عيش ثم وافته الأخبار
بأن عرب هواره ثاروا مع يونس بن عمر على سيباي كاشف
الوجه القبلى وهزموه وغضب السلطان وعزم على السفر بنفسه
فمنعه الأمراء من ذلك وأرسل يستحث الأمير يشبك بسرعة
السفر الى هناك *

وفى شعبان سنة ٨٨٣ هـ توجه السلطان الى القرين ثم
الى الخطارة لمشاهدة الجامع والسبيل اللذين أنشأهما هناك
والحوض الذى أنشأه على الدرب السلطاني وكان الشاد (٥٦)
على تلك العمارة الأمير يشبك الجمالى *

وفى ذى الحجة سنة ٨٨٣ هـ ذهب السلطان الى الجيزة
وكشف على القناطر التى أمر بإنشائها على يد الأتابكى أزيك *

وفى جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ سافر السلطان الى ثغر
الاسكندرية بحرا وهى المرة الثانية لعدم تمكنه من السفر برا
بسبب مياه الفيضان ، وسافر الأمراء والخاصكية والمماليك
السلطانية والمباشرين والأعيان ، وكان سبب سفره لمعاينة البرج
الذى أنشأه بها ، وقد انتهى العمل فيه ، فلما دخل الاسكندرية

(٥٦) الشاد : المشرف على العمل *

لهم يعمل له موكب مثل المرة الأولى ولم تحمل القبة والطيور على رأسه ، ونزل بالمخيم في ضيافة نائب الاسكندرية ثم توجه الى رشيد وكشف على البرج الذي أنشأه بها ثم كشف على البرج الذي أنشأه بشعر الاسكندرية وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطلا على البحر ينظر منه على بعد يوم الى مراكز الفرنج وهي داخلية الى الميناء ، وجعل به جامعا بخطبة وطاحونا وفرنا وحواصل ملأها بالسلاح وجعل حوله المكاحل (٥٧) المعمرة بالمدافع ليلا ونهارا لحماية الشجر من الفرنج ، وجهد به جماعة من المجاهدين مرابطين دائما ورتب لهم المرتبات ، وقيل ان ما صرف على هذا البرج زيادة على مائة ألف دينار وأوقف عليه عدة أوقاف . وأقام السلطان بالاسكندرية أياما ، ثم سافر الى دسوق وزار مقام سيدي ابراهيم الدسوقي ماشيا على قدميه والأمرء حوله واستمر في هذه الرحلة حتى أواخر جمادى الأولى . وفي نهاية الشهر عاد السلطان بحرا الى بولاق وعاد الى القلعة ، ولم يأبه السلطان بوجود الملك المؤيد بالقاهرة أثناء سفره الى الاسكندرية مع أن مماليك أبيه الأشرف اينال كانوا في غاية العصيان وقد حاولوا إثارة الاضطراب أثناء غيبة السلطان ولكن انكشف أمرهم . وفي شوال سنة ٨٨٤ هـ خرج المحمل من بركة الحاج ونزل السلطان من القلعة في الثالث والعشرين من شوال ، ولم يشعر

(٥٧) المكاحل : المدافع التي يرمى منها النقط ، وهي أنواع .

يسفره أحد من الناس وسافر معه بعض أمراء عشرات وبعض
أمراء من أخصائه وعدد كبير من الخاصكية والمماليك
السلطانية (٥٨) وجماعة من المباشرين والأعيان ، فخرج من بين
التراب وسافر بعد صلاة الظهر ونزل معه الأتابكي أزبك ويشبك
الدوادار فودعاه ورجعا وأوصاهما السلطان خيرا بالرعية ، ثم
سافر للبويب (٥٩) ثم قدم مبشر الحاج وأخبر بسلامة السلطان
وأنه دخل مكة ولاقاه أمير مكة من مسيرة يومين وأنه تصدق
على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار ، وأنه فعل في الطريق أشياء
كثيرة من وجوه البر والمعروف •

وفي المحرم عام ٨٨٥ هـ حضر رسول من عند السلطان
وأخبر بأنه دخل المدينة الشريفة وزار القبر الشريف وأنعم بها
على الفقراء بخمسة آلاف دينار وأنه وصل الى ينبع قاصدا
العقبة وأنه رحل عنها وسيصل عما قريب ، وطلب الا يحضر اليه
أحد من الأمراء وأنه سينزل بقبة الأمير يشبك بالمطرية ، فأسرع
الإمراء بالخروج الى هناك ونصبوا الخيام ، ولما وصل السلطان
البويب ركب الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وبقية الأمراء من
المطرية وتوجهوا للملاقاة فلما وصلوا البويب اجتمعوا بالسلطان
هناك وساروا أمامه حتى وصل المخيم بالمطرية ويات السلطان

(٥٨) المماليك السلطانية : مشتريات السلطان وجليانته •

(٥٩) البويب : مدخل أهل الحجاز لمصر •

هناك وحضر اليه قضاة القضاة والمشايخ وهنئوه بسلامة العودة .
 وفي الرابع عشر من المحرم ركب السلطان وحمل الأتابكي أزيك
 على رأسه القبة والطير وركب أمامه الأمراء والعسكر وسار
 أمامه القضاة الأربعة فدخل من باب النصر وشق من القاهرة وقد
 زينت له زينة رائعة وحضر ابن رحاب المعنى ولاقاه المغنيات على
 الدكاكين ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير من التبانة
 الى القلعة ، فلما وصل القلعة فرشت له خوتد عدة شقق من باب
 القلعة الى الحرش وثرث على رأسه خفائف الذهب والفضة ،
 ثم خلع السلطان على من كان معه ونزلوا الى بيوتهم . وقدمت
 هدايا للسلطان في هذه الحجة من مال وتحف تساوي مائتي ألف
 دينار من أمير مكة وقضاتها ومن أعيان التجار بها وكذلك من
 أمير المدينة المشرفة وقضاتها ومن أمير ينبع وغيرهم .

ومن ثمرات هذه الرحلة أن السلطان عندما اكتمل المجلس
 يوم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف حضر كاتب السر ابن زهر
 وأبو البقاء بن الجيعان وخشقدم الزمام وخلفهم ستة أطباق
 على رؤوس ستة من الطواشية (٦٠) وضعت بين يدي السلطان
 يحضرة القضاة والأمراء ، ولما كشف النقاب عنها وجد بها
 ستون ألف دينار ذهب عين وقال كاتب السر في المجلس : ان

(٦٠) الطواشية : الخصيان الذين استعملوا في الطباق الملوكية وفي
 الحريم السلطاني .

السلطان لما حجج في العام الماضي رأى ما عليه أهل المدينة المشرفة من فاقة لقلّة الأوقات قرر السلطان أن يفعل بالمدينة المشرفة خيرا يكون مستمرا من بعده ، وقد خرج عن هذا المال لله تعالى وهو من خالص ماله دون مال بيت المسلمين ليشتري به ما يوقفه على فقراء المدينة من ضياع وأماكن ورباع وغير ذلك ما يعمل بالمدينة في كل يوم من الدشيشة والخبز والزيت وغير ذلك كما يفعل بمدينة الخليل عليه السلام ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء في ذلك المجلس • ثم أمر السلطان بأن يكون هذا المال تحت يد قاضي القضاة الشافعي حتى يشتري به أماكن وضياع فامتنع القاضي عن ذلك واعتذر عن تسليمه حتى أعفى ثم شرع السلطان في بناء تلك الرباع التي أنشأها في باب النصر وفي غيرها من أنحاء القاهرة ومازال مبنى باب النصر قائما حتى الآن عليه نقوش تؤيد وقف إيرادها على شراء قمح الدشيشة لفقراء الحرمين الشريفين •

وفي ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك وفي أثناء عودته وقف له جنازة من العوام وشكوا له من إهمال أمر الحسينية (٦١) كما شكوا من قلّة وجنود الخبز بالدكاكين من بعد العصر ، فلما عاد الى القلعة وأمر الصاحب

(٦١) الحسينية : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويطلق عل من يقولوا اسم

المحتسب •

قاسم شغيته بأن يتولى أمور الحسبة عوضا عن يشبك الجمالي
الذي عزل لاهماله .

وفي صفر سنة ٨٨٦ هـ توجه السلطان الى قليوب وعاد
الى قبة الأمير يشبك بالمطرية وصلى الجمعة بها وأمه قاضي
القضاة الشافعي ، وفي نفس الشهر نزل السلطان الى الخانكة
فأعجبه مكان عند فناطر المرج والزيات فأمر ببناء زاوية هناك
وحوضا وسبيلا . وفي هذا الشهر نزل السلطان الى الروضة
وأمر بتجديد الجامع الموجود بها تجاه المشمية والذي آل الى
الخراب ، فأمر بهدمه وتجديده وكان الشاد على عمارته البدرى
حسن بن الطولوني ، ثم توجه الى المقياس ونزل عن فرسه ودخل
الى قاعة المقياس وأمر بتجديد بعض أماكن بها واصلاح
أساساته ، وأخذ السلطان يتردد على الروضة لمشاهدة هذا
الجامع حتى انتهى منه في سنة ٨٨٨ هـ وصار يعرف بجامع
السلطان .

وفي رمضان سنة ٨٨٦ هـ نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك
الدوادار بالحسينية وأمر باتمامها فان الأمير يشبك لم يكملها
وهي المعروفة الآن بالقبّة القدوية ورجع السلطان من القاهرة
وشكا اليه الناس من الفلوس الجديدة وغلو البضائع ، فلما ظلم
القلعة أمر بعقد مجلس بالمدرسة الصالحية (٦٢) فاجتمع القضاة

(٦٢) المدرسة الصالحية : مازالت قائمة بالصاغة بالقاهرة وهي من انشاء
الصالح نجم الدين ايوب .

الأربعة وكتب السر وناظر الخاص والمحتسب وأخذوا يناقشون
مشكلة الفلوس الجديدة وعارض ناظر الخاص في الفلوس
القديمة لأنه ضرب فلوسا جديدة عليها اسم السلطان وأراد أن
يخرجها بأعلى من الفلوس العتق ، وثار العوام في وسط المدرسة
الصالحية ورجموا ناظر الخاص ولولا وجود كاتب السر لقتله
العوام ، ثم اتفق على أن تكون الفلوس كلها العتق والجديدة
بالميزان ستة وثلاثين الرطل ، وأعلن ذلك في القاهرة •

وفي المحرم سنة ٨٨٨ هـ نزل السلطان وتوجه الى جهة
سنيث لمعاينة الجسور ثم زار مقام سيدي أحمد البدوي •

وفي المحرم سنة ٨٩١ هـ نزل السلطان الى الشرقية لمعاينة
الجسور وغاب هناك أياما ثم عاد الى القلعة • وفي نفس الشهر
نزل السلطان وتوجه الى الروضة وعدى وهو راكب وتوجه الى
خرطوم الروضة وأقام به الى آخر النهار وأمر ببناء قصر له
هناك ولكن ذلك لم يوضع موضع التنفيذ ، وفي نفس الشهر
توجه الى قبة يشبك بالمطرية ، فلما رجع نزل عن فرسه ، وزار
تربة الظاهر بقرق ودرس أحوالها وأمر بأن يعمل لها منبر من
الحجر لم يزال موجودا حتى الآن • ثم عاد الى القلعة وأمر
برعاية مصالح الصوفية بتربة الظاهر برقوق •

امراض السلطان ووفاته :

انتاب السلطان كما ينتاب غيره من بنى البشر وعكات
وأمرض كان آخرها مرض موته . فقد أصيب بكسر في ساقه
عندما شب فرس الأتابكي أزيك على فرس السلطان ورفسه
فجاءت الرفسة في رجل السلطان فكسرت ورجع الي شبين
القصر (شبين القناطر الحالية) ومنها الي القاهرة في محفة ،
وكثر الاشاعات ثم خرج السلطان وأرسلت الرسل الي حلب
معلنة سلامته . وعندما تمالك السلطان السرور بعد هزيمة
العثمانيين ركب أحد خيوله وأخذ يتنزه في القلعة وانقلب به
الفرس فسقط على الأرض وانكسرت رجله وأغمى عليه وحمله
بعض الخاصكية وهو مغنى عليه الي قاعة الدهيشة وترددت
الاشاعات بوفاته ، وأسرع الأمراء لزيارته بالقلعة ، وأمر
السلطان كاتب السر بأن يكتب على الفور مراسيم الي حلب
ليطمئن الأمراء والجند ، وظل السلطان مريضا وزاره القضاة في
القاعة الواقعة بين الدهيشة وقاعة الحرم وعلى الرغم من مرض
السلطان فقد زينت القاهرة والقلعة ، عندما وصلت القاهرة
رؤوس بعض الجند العثمانيين بعد هزيمتهم ، وكسيت دكة
السلطان بالحرير وأقيمت المراسيم كما لو كان السلطان حاضرا ،
ولم يتمكن السلطان من الاشتراك في هذا الاحتفال ، ولكي
يطمئن الشعب على سلامته حمل على السرير وخرج الي قاعة
الدهيشة وجلس بالشباك المطل على الحوش ، واطمأن الناس

عليه ، وصلى السلطان الجمعة بجامع القلعة بعد شفائه ، واحتفلت
القلعة بشفائه ، واستقبل بالغناء وثرت خوند على رأسه خفاف
الذهب والفضة وفرشت له شقق الحرير تحت حافر فرسه ،
وكافأ السلطان الأطباء والمزينين بالخلع السنية وزينت القاهرة
لشفاء السلطان .

حاول المماليك الجلبان اغتيال السلطان أثناء نومه على
الدكة في الحوش في زمن الصيف ، ولما علم الخاصكية بأبناء
تلك المؤامرة أبلغوا السلطان بها فترك ذلك المكان ، وفي الصباح
وجد ثلاثة أسهم نشاب في المخدة التي كان ينام عليها ، وكم
السلطان ذلك الخبر . ويبدو أن الجلبان الذين فشلوا في اغتياله
حاولوا الثورة للقضاء عليه ، نزل السلطان الى باب السلسلة
وجلس بالمقعد ولكن المماليك لم يكثرثوا بذلك بل زاد طغيانهم ،
وحزن السلطان وأصابته الحمى وصعد الى المقعد ، ودخل الى
المبيت الموجود به ، ولزم الفراش وازداد عليه المرض ، وأصابه
اسهال مفرط أقعده عن الحركة . طلع الأتابكي أربك الى
السلطان في المبيت فوجده في النزاع الأخير وعرض عليه ما اتاب
البلاد من فساد وطلب منه أن يسلطن ابنه محمد ولكنه لم يرد
جوابا ، ونزل أربك ليعلن ابنه محمد سلطانا بدلا من أبيه ،
خشى الأمراء من أربك وثاروا عليه وقبضوا عليه ونهوه واشتوروا
فيما بينهم على من يتولى السلطنة اجتمعت كلمتهم على تولية

محمد ابن السلطان . اجتمع مجلس من الخليفة والقضاة
والأمراء وخلعوا السلطان الذى أشرف على الموت . وكان ابنه
الإمير محمد حاضرا فبايعه الخليفة عوناً عن أبيه ، وشهد القضاة ،
ولم يشعر السلطان الذى كان يعاني سكرات الموت بما يجرى
حوله .

وفى ٢٧ ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ بعد العصر ، توفى
السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى بالقلعة وبنات بها ،
وشيعت جنازته فى اليوم التالى ، توفى وله من العمر نحووا من
٨٤ سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية
٢٩ سنة و ٤ أشهر و ٢٠ يوما . وجدير بالذكر أن السخاوى
المؤلف ذكر مولد السلطان فى سنة بضع وعشرين وثمانمائة ،
وإذا كان السلطان قد توفى عن ٨٤ عاما فيكون مولده اذن
سنة ٨١٧ هـ .

لم يخلف السلطان سوى ابنه محمد وسيرته العطرة وأعماله
المعمارية التى خلدت اسمه ، والخيرات الكثيرة التى ما زالت
قائمة .

صفاته ومحاسنه :

عاش عمره كله وهو فى عز وشهامة منذ أن كان خاصكيا الى
أن صار سلطانا ، ولم ينف قط ولا قيد ولا سجن ، وكان عليه

سكينة ووقار مهابة جميلة الهيئة مجلا في مركبه كعنا للسلطنة ،
وافر العقل سديد الرأى ، عارفا بأحوال المملكة يضع الأشياء
في محلها ، ولم يكن عجولا في الأمور ، بطيء العزل لأرباب
الوظائف يتروى في الأمور أياما قبل اتخاذ قرار بشأنها ، وكان
لا يخرج اقطاع أحد من الجند الا بحكم وفاته ويرسل من
يكشف عليه وهو ميت حتى يتأكد له نبأ موته •

كان طويل القامة عربى الوجه مصفر اللون نحيف الجسد
شايب اللحية ، شجاعا عالما بأنواع الفروسية ولا سيما لعب
الرمح • وكان مغرما بمشترى الممالك ، وأطلق على ممالكه
الأشرافية وكانت نواتهم ما اشتراه من ممالك الظاهر خشقدم ،
ولم يشرب الخمر قط ولم يستعمل المواد المخدرة ، اشتغل بالعلم
وكان كثير المطالعات فى الكتب ، وله أذكار وأوراد جلييلة كانت
تتلى فى الجوامع ، واعتقاد فى القراء ويعظم العلماء ، عارفا
بمقام الناس ، ينزل كل منهم منزلته • وكان متصوفا متقشفا ،
لا يوصف بالكرم ولا بالبخل المفرط ، له بر ومعروف فقد
أوقف عدة جهات على وجوه البر والصدقة ، وكانت محاسنه
أكثر من مساوئه • وكان السلطان يشتغل بالتجارة ولما أراد أن
يتصدق على فقراء المدينة المنورة بإنشاء عمائر فى القاهرة تدر
دخلا ثابتا يشتري منه القمح ، اشتراها من مال من دخله الخاص
وليس من مرتبه المقرر له فى السلطنة •

ماخذ على السلطان :

سبق أن عرضنا لبعض تلك المآخذ ، على أن أكبر ما أخذ على السلطان هو ابطاله الكثير من شعار المملكة ، وأخذ عليه ازال التواب من وظائف كبيرة الى وظائف أصغر .

ومن مساوئه قطع الرواتب عن أولاد الناس وإن كان الدافع لذلك هو الاعداد لحرب شاه سوار ، ومنها ما تقرر من أخذ أجرة سبعة أشهر مقدما على الأملاك بما فيها أوقاف الجوامع والمدارس والتراب . ومصادرة التجار وفرض الخمس على أراضي الشرقية للصرف منها على خيول الحرب وتمييزه المالك عوضا عن مشايخ العربان وقد وقع منهم الظلم البالغ على الفلاحين ، ومنها احداث مكس على بيع الغلال وجعل على كل أردب قمح أو شعير نصف فضة زيادة عن ثمنه للمشتري والبائع على السواء ثم زاد ذلك الى نصفين . ومنها تفرقة الرواتب بنفسه وظل كذلك ، وهو أول من جلس من الملوك لتوزيعها . ونسب اليه قبول الهدايا والرشاوى كما حدث مع ابن مزهر .

أما قسوته على المباشرين وغيرهم فكثيره ، ومما لا يغفراه أمره بقطع رأس أزدمل الابراهيمى الطويل الاينالى وذلك استجابة لاصرار يشبك الداودار وامتناعه عن الخروج لحرب سيف أمير آل فضل الا اذا قطعت رأسه وقد نفذ السلطان

ما أراد وخرج يشبك الى حرب سيف أمير آل فضل حيث قتل
هناك ، ومن مساوئه اعادة بناء كنيسة اليهود بيت المقدس
ومعاملته السيئة لقاضى القدس .

المؤرخون وقايتباى :

عاصر السلطان قايتباى عدة مؤرخين منهم ، أبو المحاسن
جمال الدين يونسف بن تغرى بردى ، الذى عاصر أوائل عهد
ذلك السلطان . ونور الدين على بن داود الصيرفى الخطيب
الجوهري ، الذى عاصر معظم عصر ذلك السلطان ، ولولا
ضياع مؤلفاته أو وجود نقص فى الجزء الموجود منها والمعاصر
للسلطان لعرف الكثير عن عهده . وأبو الخير محمد بن
عبد الرحمن بن محمد السخاوى ، وقد عاصر معظم عهد السلطان
كذلك ، وتركه لنا ترجمة للسلطان ألفت الكثير من الضوء على
حياته . ومحمد بن أحمد بن اياس الذى عاصر عهد ذلك
السلطان . وامتدت به الأيام حتى رأى بعينى رأسه نهاية دولة
المماليك وبداية حكم العثمانيين . وأما المؤرخ جلال الدين بن
عبد الرحمن السيوطى المعاصر للسلطان فربما تنسب المخطوطة
الخاصة بترجمة السلطان اليه .

هذا وقد ترجم للسلطان كثير من المؤرخين ، نذكر منهم ،
مرعى بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد المقدسى فى كتابه نزهة

الناظرين في تاريخ من تولى مصر من الخلفاء والسلاطين •
 وعبد القادر بن العيدروس الهندي ، في كتابه النور السافر •
 ونجم الدين محمد بن أحمد الغزي ، في كتابه الكواكب السائرة
 بمناقب أعيان المائة العاشرة • وأبو الفلاح عبد الحى بن العماد
 الحنبلى ، في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب • ولكل
 من هؤلاء وهؤلاء رأى في السلطان ، آثرت أن أثبت بعض
 آراء المعاصرين منها باعتبارها حكما على ذلك السلطان •

يبدو أن ابن تغرى بردى لم يكن راضيا على نزول السلطان
 وطوافه بالأقاليم فعلق : (كل هذا والسلطان دائر بتلك الأقاليم
 في هوى نفسه ودأبه أخذ الأموال والتقدم (٦٣) من الناس حتى
 من كبار فلاحى البلاد ويتوجه بنفسه اليهم حتى يأخذ تقدمته ،
 ولم يكن في سفره هذا مصلحة من المصالح بل المضرة الزائدة
 لاسيما على الفلاحين وأهل القرى فانه شملهم ضرر الأعوان
 والضوية (٦٤) لأخذ الأحطاب فكانوا اذا ما لقوا شيئا في البيت
 أخذوا بابه وخشبه وكذلك فعلوا بغالب الطواحين ، ويقول
 المجازف وكذا فعلوا بالمساجد ، ومع ذلك كله استطالت العرب
 على الناس وكثر الفساد) •

(٦٣) التقدم : الهدايا •

(٦٤) الضوية : المكلفون بأعمال الاعضاء •

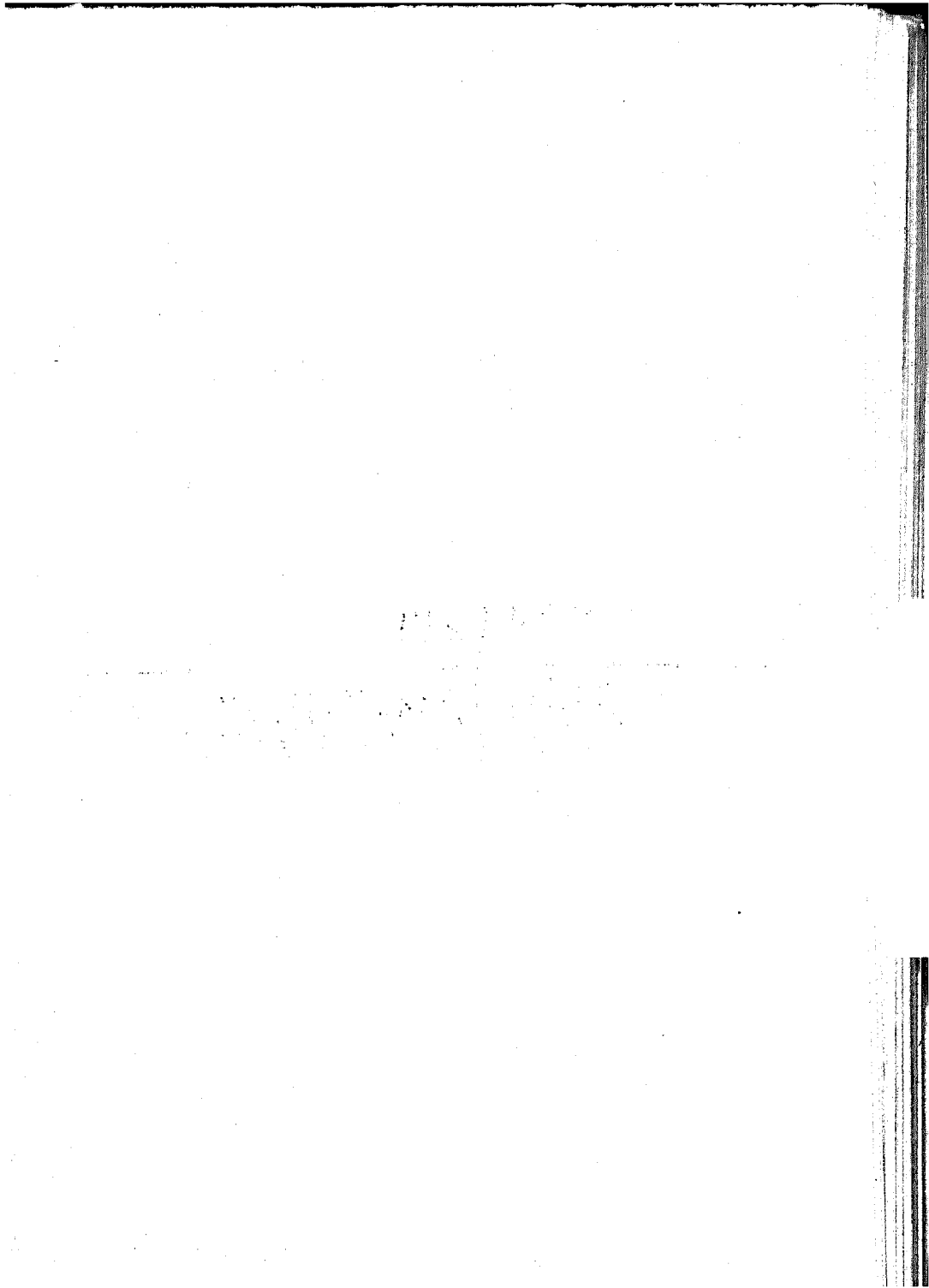
أما الجوهري فقد كال الثناء والمديح للسلطان قائلاً :
(في الواقع فسلطان مصر الملك الأشرف أبو النصر قايتباي
نصره الله ، سلطان شجاع ، فارس معدود من الفرسان ، دين
غفيف الفرج ، لا يلوط ولا يزنئ ولا يسكر ، وله ورد في الليل
من صلاة وقيام ، وعنده تودة عظيمة سيما في القول
والولايات) .

أفرد السخاوي ترجمة مطولة للسلطان عدد فيها مآثره
وأعماله ، وتعتبر بحق أكبر حكم منصف لذلك السلطان ، ومنها
قوله (ولما استقر في المملكة أخذ في الإبقاء والعزل والأخذ
والبذل والتحرى لما يراه العدل والتقريب والترحيب والتهديد
والارشاد والابعاد والتلبث والتثبت برأيه وتديبه وسعيه وتقريره
مع الجريمة الزائدة والهمة التي بالشهامة شاهدة ، والخضوع لمن
يعتقد فيه العلم والصلاح والرجوع لمن لعله يستند اليه بالارتياح ،
وعدم التفاته لحبل الشفاعات وتخيلاته من تلك المعارضات
والمدافعات) وختم ترجمته قائلاً : (وبالجملة فلم يجتمع ملك
ممن أدركناه ما اجتمع له ولا حوى من الحذق والذكاء والمحاسن
مجمل ما اشتغل عليه ولا مفصله ، وربما مدحه الشعراء فلا
يلتفت لذلك ويقول لو اشتغل بالمدح النبوي كان أعظم من
هذه المسالك وترجمته تحتمل مجلدات من الأمور الجليات
والخفيات) .

أفرد ابن اياس مجلدا كبيرا من كتابه بدائع الزهور لعصر
ذلك السلطان واختتمه بذكر أعماله وذكر محاسنه ومساوئه ،
وختم ذلك قائلا (ومن محاسن الأشرف قايتباي أنه كان في شدة
غضبه يستحيل راضيا ويزول ما كان عنده من الحدة ، وهذه من
أجمل الخصائل ، وفي الجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه ،
وكان خيار الترك بالنسبة لمن جاء من بعده من السلاطين ولولا
كان عنده بعض طمع لكان أجل ملوك الجراكسة ، وكان من
خيارهم) .

الفصل الثاني

أحوال البلاد المأفلة



امتد حكم السلطان قايتباي ما يقرب من الثلاثين عاما ،
وهي أطول فترة حكم فيها سلطان من سلاطين الجراكسة ،
وكان لحسن تدييره وكياسته أكبر الأثر في استقرار الأمور في
البلاد ، كما كان لانتصاراته الحاسمة على العثمانيين أكبر الأثر
في تثبيت هيبة الامبراطورية المملوكية بين الدول المحيطة بها
والدول التي تربطها بها علاقات خارجية ، وقد بدأ السلطان عهده
بتدبير أمور الدولة وترتيبها كما بدأ في التخلص من مماليك
السلطان الذي حكموا قبله حتى يأمن شرهم . وقد واجه
السلطان الكثير من الثورات الداخلية بالاضافة الى ثورات
التابعين له في أطراف الامبراطورية ، ولولا تلك الثورات
الداخلية لامتاز عهد السلطان بالأمن المطلق ، ومع ذلك فقد
عمت الطمأنينة بين الناس وأخذ الأمراء الذين فروا قبل عهده
والتجأوا الى بلاد العثمانيين يعودون الى ديارهم ، كما لجأ اليه
الكثيرون فأكرم وفادتهم . وأما الثورات الداخلية ففعل أهمها

ثورات الجلبان المتكررة والتي زهدت السلطان في الحكم وجعلته لا يوافق على سلطنة ابنه من بعده خوفا عليه والتي جعلت السلطان نفسه يهدد بالعزل حتى وضع ذلك التهديد موضع التنفيذ وخلع نفسه وان كان قد أعيد الى السلطنة للمرة الثانية في نفس المجلس ، ويبدو أن الجلبان لم يقدروا حرج موقف السلطان وما تكبده من النفقات على الحملات الحربية ، فأخذوا يطالبون بالمزيد من النفقات ولم يكتروا بتهديد السلطان بل تطاولوا عليه وحاولوا اغتياله وكانوا سببا في ترك الأتابكي أزيك لوظيفته ومغادرته البلاد الى مكة ، وأما ثورات الأمراء فقد استطاع السلطان بحزمه ولباقته أن يوازن بينهم وأن يصبح بمنجاة منها وهي الثورات التي كثيرا ما كانت تعكر صفو السلطان القائم بالأمر وتهدد حكمه ، وأما العرب فأخذوا يخرجون المرة تلو المرة على حكم المماليك حتى هددوا ذلك الحكم ، مما اضطر السلطان أن يرسل لهم الحملات المتعاقبة الواحدة تلو الأخرى ليطش بهم ويعيدهم الى حظيرة الدولة .
وأما الشعب فكان له دور ملحوظ في عهده ، وكان السلطان يخشى بأسه ويتحاشى مواجهته ، وكان دور الفقهاء ملحوظا .
وقد وقف بعضهم في وجه السلطان مواقف حاسمة ومشرقة ، ولم يخش بأسه .

سارت الأمور الداخلية في طريقها المألوف من الاحتفال

بوفاء النيل الى الاحتفال بختم قراءة البخارى الى مواكب العيد
والمواكب فى المناسبات المختلفة الى غير ذلك مما كان متبعاً فى
الدولة قبل عهده ، كان المماليك ينعمون بخيرات البلاد وتقام لهم
الاحتفالات البهيجة فى عقد قرانهم وفى ختان أبنائهم وزواجهم .
ولم يعكر صفو تلك الأحوال إلا ما اجتاحت البلاد من نقص فى
فيضان النيل فى بعض الأحيان والى ما اجتاحت البلاد من طواعين
وما هزها من زلازل . أما ما كان ينتاب الشعب من اعتداء المماليك
فلا يمكن أن يقاس بما كان يعاينه قبل عهد ذلك السلطان
لانشغالهم فى الحروب المتعاقبة ضد شاه سوار وحسن الطويل
والعثمانيين . اندلعت بعض الثورات فى أقاليم الامبراطورية وكان
معظم أسبابها ما يحرق بالأهالى من ظلم الولاة . اعتنى السلطان
بالجسور المقامة على النيل باعتباره مصدر الخير للبلاد . وكان
لضرب نقود جديدة أثر سئ فى ارتفاع الأسعار والتى كان
نقص فيضان النيل فى بعض السنين من أسبابها أيضا ، بالإضافة
الى ثورة الشعب عليها ووقوفه فى وجه السلطان بسببها . ومن
تصرف بعض المحتسبين عانى الشعب الكثير .

التخلص من مماليك السلاطين السابقين :

بدأ السلطان فى التخلص من مماليك السلاطين السابقين
لكى يأمن شرهم ويكون له مماليك جددا ساهموا الأشرية وهم
الذين أصبح عليهم المعول فى دولته وبعد حكمه أيضا . وقد

عمل السلطان على أن يتخلص من الخشقدمية والاينائية . أما
الخشقدمية فبدلا من نفيهم أرسلهم الى محاربة شاه سنوار
الخارج على طاعة الدولة في الشمال مع حملة كبيرة هزمت هزيمة
نكراء وقتل منها عدد كبير ، هذا وقد اشترى السلطان منهم نحو
من خمسمائة مملوك من المماليك الكتائية دفع عشرة آلاف درهم
ثمنا لكل منهم بعد أن أقاموا وصيا على الملك الظاهر خشقدم
وأطلق عليهم اسم الأشرفية نسبة اليه . ولم يكتف السلطان
بذلك بل أخذ في نفي من بقي منهم .

أما الاينية فعلى الرغم من أن السلطان أخذ يؤمر منهم
الكثير في أوائل سلطنته حتى يتفادى اتفاقهم مع الخشقدمية ،
فانهم لم ينجوا من تكيهه بهم وتشريده اياهم وحتى الأمر
قانسوة الخفيف الأحمدي الذي كان زعيما لهم والذي كان
سببا في وصول قايتباي للسلطنة لم يفلت من عقابه ونفاه لدمياط
وكان السلطان يحقد عليه لما كان يردده في مجالسه من أنه لولاه
لما ارتقى قايتباي السلطنة ، وأخذ ينفيهم تديجيا ، بل زاد على
ذلك أن عرض أحدهم وهو أمير عشره للبيع في سوق الرقيق
بخان الخليلي وأمر بأن يحمل ثمنه للملك المنصور عثمان بن
جقمق ولم يقبل السلطان شفاعة فيه ، وكان لهذا المملوك رفيقين
وكانوا جميعا في ملك الملك المنصور عثمان بن جقمق فلما أرسلوا

اليه في دمياط أعنتهم ، ونفى السلطان اثنين منهم وعنا عن ثلثهم بشرط أن يقيم في مصر بلا عمل وكان السبب في غضب السلطان عليهم هو اشتراكهم في الثورة على السلطان في نفس الوقت الذي ثار فيه المماليك على الأمير شبك الدوادر ولكن أمرهم انكشف وأخذ السلطان في نفيهم جماعة بعد أخرى ، وتكرر خروج الاينالية على السلطان وزاد تنكيه بهم ، وعلى الرغم من تنكيل السلطان بالاينالية الا أنه كان يعامل الملك المؤيد أحمد بن اينال معاملة حسنة وخرج الى الاسكندرية وتركه بالقاهرة وهو يعلم أن بها الاينالية ممالك أيه وأنهم كانوا دائمي الثورة عليه وكانوا يتحينون الفرصة للإطاحة بعرشه ، ويبدو أن السلطان المؤيد أحمد بن اينال لم يكن متجاوبا مع ممالك أيه وأنه اكتفى بالمعيشة في الاسكندرية حرا طليقا وأن يحضر الى القاهرة كلما أراد باذن من السلطان ، وقابل اكرام السلطان ورعايته له بالمثل فلم ينسب اليه شيء مما حدث من ممالك أيه وكان سببا في نفيهم وتشريدهم في الأرض .

ثورات الجلبان :

أما الجلبان أو المشتروات وهم ممالك السلطان ، فقد سبق القول أنه اشترى أول طائفة منهم من ممالك الملك الظاهر خشقدم ثم أخذ عددهم في الازدياد حتى أصبح المعول عليهم في حكم قاييتبای وبعده كذلك ، وقد كثرت ثوراتهم واقتلوا

ضاحج السلطان وجعلوه يزهد في الحكم وهدد بترك البلاد
والذهاب الى مكة بل وخلع نفسه وزاد طغيانهم حتى شرعوا
في قتله لولا وصول نبا المؤامرة اليه وتركه المكان الى مكان
آخر . وكافت كل ثوراتهم ، لطلب المزيد من المال وضد
السلطان وبعض الأمراء وتعدت ذلك للنهب والسلب ضد الشعب
والتجار والمنشآت العامة .

وكانت أولى ثورات الجلبان في شعبان سنة ٨٧٧ هـ على
شرف الدين بن كاتب غريب . الذي كان مشرفا على الوزارة
والاستادارية نيابة عن الأمير شيبك الدوادار ، وقد توجهوا
الى داره وكسروا أبوابه فهرب واختفى وفي عام ٨٧٨ هـ كثرت
ثورات الجلبان ومنعوا الأمراء والمباشرين من الصعود الى
القلعة في جمادى الآخرة ورجب من نفس العام وكان رأس الفتنة
على باى الخشن من مماليك السلطان ، ولما خمدت الفتنة ضربه
السلطان نحو من ألف عصا ونفاه الى الشام وظل في المنفى
حتى سقط عليه جدار وتوفي . وأما في شهر ذى القعدة من نفس
العام فقد قام الجلبان بثورة عارمة وتوجهوا الى بولاق ونهبوا
ما فيها ، ثم توجهوا الى شونة الأمير يشبك ونهبوها واغتصبوا
جمال السقايين وحملوها أسلابهم ، واشتد غضب السلطان
ونزل من القلعة لمطاردتهم ولكن نزوله كان بعد قوات الأوان ،
وبات السلطان في جامع زين الدين الأستاذار ببولاق واستضافه

امام الجامع وخطيبه القاضى تقي الدين البرماوى . وفى الشهر
التالى عزم المماليك الجلبان على قتل الأمير يشبك ، ولكنه هرب
منهم الى ضواحي الجيزة وظل مختفيا بها نحو من خمسة
عشر يوما ، وكثرت الاشاعات وامتنع الأمراء عن الصعود الى
القلعة ، وظل السلطان غاضبا خانقا بالدهشة على مماليكه وأغلق
أبوابه ثم صعد اليه الأمراء وكاتب السر وغيرهم وحاولوا
التوسط بينه وبين جلبانه ولكنه صمم على عدم الصلح معهم ، ثم
خرج الى الحوش وجلس على الدكة وطلب زعيم تلك الفتنة
وكان شخصا يدعى الأقطش وأمر بقتله ثم شفع له الأمراء فأمر
بتجريدته من ثيابه ، وضرب ألف عصا ثم سجن بالبرج بالقلعة ،
وظل يشبك مختفيا حتى هدأت الفتنة وعاد . ولم تنته ثورات
الجلبان على الأمير يشبك عند هذا الحد ، ففي ربيع الأول سنة
٨٧٩ هـ ثار الجلبان عليه وصمموا على قتله ولما علم السلطان
بذلك أمر كبار رجال الدولة بالاستعداد لملاقاة الجلبان ، وتأزمت
الأمر بالقاهرة وأغلقت الأسواق ، ونصح الأمراء السلطان
بأخذ الأمور باللين حتى لا يعطى للابنالية الفرصة بالثورة عليه
إذا ما انشغل فى اخماد فتنة الجلبان ، وأخذ السلطان بنصيحتهم
وأرسل أحد الأمراء الى منزل الأمير يشبك ومعه بعض المماليك
الجلبان واعتذروا له واطته الفتنة . وما كادت هذه الفتنة
تخمد حتى ثار الجلبان مرة أخرى على الأمير يشبك وتذرعوا

هذه المرة بأنه دس السم للأمير جانم ، وظل الأمير يشك في خوف ووجل من الجلبان وأخذ يتقرب اليهم بشتى الوسائل وكان السلطان يوصيهم خيرا بالأمير يشك *

وأما ثورات الجلبان فيما بينهم فقد ثاروا في جمادى الأولى سنة ٨٨٣ هـ حتى تنازعوا بالسيوف ، وغضب السلطان ورمى النمجاه والترس من يده ونزل من القلعة وتوجه الى شطانوف ، وعندما علم الجلبان بنزول السلطان من القلعة ، سكنت الفتنة وتوجهوا اليه يرجونه في العودة الى القلعة ولكنه لم يعد الا بعد جهد كبير ، ثم ثاروا مرة أخرى وعزموا على قتل مقدم الممالك ولكنه فر منهم واختفى وقاموا بحرق باب الزردخاناه * وفي عام ٨٩١ هـ وقف الممالك الجلبان للأمراء عند سلم المدرج وطلبوا منهم أن يبلغوا السلطان بأن يوزع عليهم النفقة ورجوا الأمير أقبردى الدوادار أن يطلب من السلطان أن ينفق عليهم مكافأة لهم على انتصارهم على العثمانيين ، وأبلغ أقبردى رغبتهم للسلطان ولكنه رفض وثار الجلبان حتى هرب الأمراء ما في مخازنهم وغلقت الأسواق ولم يتمكن القضاء من الطلوع الى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر ، وذهب الأتابك أزيك الى السلطان وطلب منه الاتفاق عليهم ووافق السلطان في آخر الأمر ولكن بشروط أن يعطى كل مملوك خمسون دينارا ونودى بالقاهرة بأن النفقة تكون أول العام الجديد وهدأت الفتنة وأملى الممالك

شروطهم على السلطان عندما بدأ يوزع عليهم النفقة ورضيخ السلطان . وفي عام ٨٩٢ هـ ثار الجلبان و غضب السلطان وطلب زعماءهم وقال لهم « ان كان مقصدكم قتلى فدونكم ذلك » و تم الصلح ولكنهم سرعان ما ثاروا بعد انصرفهم من عنده وأشيع أن السلطان يريد الفرار بنفسه منهم الى جهة غير معلومة . وفي عام ٨٩٤ هـ اضطر السلطان أن يجمع القضاة الأربعة وأن يعرض عليهم خلو الخزائن من الأموال وتهديد الجلبان بالثورة العارمة و تم الاتفاق على فرض أجرة شهرين على الأملاك والأوقاف بمصر والقاهرة مساعدة للسلطان في النفقة على الجلبان و شرع في جمع الأموال فعلا . وليت الأمر اقتصر على ما فرض من مال فقط بل جمع السلطان القضاة وعرض عليهم أن ما صرف على الحملات الحربية بلغ سبعة آلاف ومائة وخمسة وستين ألف دينار وطلب من الأمراء أن يختاروا من يولوه وعزل نفسه ولكنهم رفضوا واستدعوا الخليفة العباسي الذي بايعه مرة ثانية ، وبعد ذلك عمل السلطان على جمع المال المطلوب للنفقة وفرض على المماليك القرانصة (١) وأولاد الناس الذين لم يسافروا في الحملة ضد العثمانيين بعض المال أيضا . و غضب العوام مما فرض على الأملاك وأرادوا قتل الشيخ شهاب الدين أحمد الشينى عندما أشيع عنه أنه كان السبب في اقتراح فرض تلك الأموال على الأملاك . و ثار الجلبان مرة أخرى عند جلوس السلطان لتوزيع

(١) المماليك القرانصة : احدى فرق الجيش المملوكى .

النفقة وغضب السلطان وقام من فوق الدكة وهمدهم بترك السلطنة والذهاب الى مكة ، وأثناء الأمرء عن عزمه وبعد ذلك وزع عليهم النفقة استعدادا للسفر لمحاربة العثمانيين . وازداد احتياج السلطان للأموال بسبب الحرب مع العثمانيين وجمع القضاة بقبة يشبك وعرض عليهم ما وصلت اليه الأحوال مع العثمانيين وأن استيلاءهم على مقاطعة حلب سيسبب الضرر للدولة كلها وأن الممالك الجلبان يطلبون النفقة وطلب منهم الموافقة على فرض أجرة سنة على الأوقاف والأموال بمصر والقاهرة وتقرر أخيرا فرض أجرة خمسة أشهر بالإضافة للشهرين السابق فرضهما وتشدد السلطان في جمع الأموال ، ولحق الناس من ذلك غاية الضرر . وفرضت مثل تلك الأجرة على تجار الشام والاسكندرية ودمياط . وفي عام ٨٩٨ هـ ثار الجلبان وأغلقت الأسواق والدكاكين ونهبوا من دار قانصوه خمسمائة أثناء غيابه . وكانت آخر ثورات الجلبان في ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ عندما ثار ممالك قانصوه خمسمائة وحاصروا أقبردى ولم يذعنوا لأوامر السلطان الذى جلس بالمقعد بباب السلسلة بل صمموا على قتله ولما بلغه الأمر ترك المبيت وفي الصباح وجد ثلاث شباب فى المخده فكتم الأمر ويبدو أن هذا الحادث هز السلطان وكان فى سن الشيخوخة فأصابه اسهال مفرط وحمى فمرض وهو المرض الذى توفى فيه واستراح من ثورات الجلبان .

أما ثورات الجبلان ضد الشعب فقد اعتدوا في ذى القعدة سنة ٨٨٧ هـ على دكاكين التجار وأخذوا كل شيء غصبا بدون مقابل . وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٨ هـ ذهب أحد الجبلان الى سوق الشرب (الملابس) ليشتري ثوبا بعلبكياء ، وتعالى على التاجر وضربه وأخذ الثوب وشكاه التاجر للأمير برسباى قرا ولكن رفاقه ثاروا وعزموا على حرق الشرب وأخلوه من التجار وثاروا على برسباى قرا واستطاع الأتابك أذربك أن يصلح بينه وبين الجبلان بعد أن نهبوا داره وأحرقوه كما نهبوا الرباع المجاوره لها وأحرقوها أيضا وتعهدوا على المدارس فنهبوا البسط بالمدرسة الأيوبكرية والفخرية حتى أخذوا قناديلها وتعتبر هذه أول ثورة من الجبلان ضد القاهرة . . . وتعدى الجبلان على البدرى بدر الدين بن مزهر المحتسب وعزموا على حرق بيته ولكنه اختفى وكان سبب ذلك تسعيرة اللحوم والخبز والجبن وغيرها ، وتوجهوا الى الشون وكسروا أبوابها ونهبوا مافيها من شعير وقمح ولم تنج منهم حتى شون السلطان والأمراء . ولما بلغ السلطان ذلك أرسل جماعة من الخاصكية ومقدم المالك ولكنهم عجزوا عن ردهم فاضطر السلطان الى الركوب بنفسه وعندما رآوه هربوا وتوجهوا الى دار الصاحب قاسم ونهبوها ، واستمرت ثورتهم الى اليوم التالى ، ولم يتمكن أحد من المباشرين الصعود الى القلعة ،

وتوشل كاتب السر لدى السلطان لكي يعفى ابنه من الاشراف
على الحسبة .

النزاع بين الأمراء :

ظل النظام المتبع في العهد السابق لحكم قايتباي بالنسبة
للأمراء ووظائفهم ومخصصاتهم قائما ، وكان السلطان منحازا
انحيازاً واضحاً للأمير يشبك من مهدي الدوادار فقد جمع كل
سلطات الدولة في يده ، وغض نظره عن كل الأصوات التي
ارتفعت ضده ، بل وخاصم الجلبان بعد موقفهم العدائي السافر
منه ، وكما كان يزعمه حيا ظل وفيما لذكراه بعد موته على الرغم
من هزيمته ضد حسن الطويل وقتله . وكذلك أخذ السلطان
يفدق الوظائف على بعض الأمراء مع صغر سنهم كما حدث
للأمير جانم أحد أقاربه وغيره . وتميز عصر قايتباي كما تميز
غيره بالنزاع بين الأمراء وجندهم مما كان يشكل خطراً كبيراً
واضطراباً في الأمن ، فضلا عما كان يقع بين الأمراء أنفسهم
من مشاحنات ، كان بعضها لأسباب تافهة ، ومن أمثلة ذلك
ما حدث بين تغرى ططر وبين الأتابك أوزبك أثناء لعب الكرة
عندما زاحم فرس ططر فرس الأتابك أوزبك عدة مرات مما اضطر
أوزبك الى أن يضربه بالصولجان على ظهره وتدخل الأمير جاني
بك قلعيسيز في الأمر واضطر الأتابكي أوزبك الى أن يترك اللعب
وينزل الى منزله غاضبا وسبب ذلك الكثير من الضيق للسلطان .

ومن ذلك ما وقع بين الأمير يشبك وبين الأمير خاير بك من جديد في حضرة السلطان صحصاح الكاشف بالفيوم وكان سبب النزاع متعلقا بأرض خاير بك هناك وتمصب لصحصاح الأمير يشبك وكانت فتنة بين الاثنين . ومن أمثلة النزاع الذي حدث بين مماليك الأمراء ما حدث بين مماليك أقبردى الدوادار وبين مماليك أزدمر أمير مجلس وقد وقعت بينهما فتنة بميدان الرملة وشهروا الأسلحة على بعضهم وانضم بعض المماليك السلطان الى مماليك أقبردى وكاد الأمر يخرج عن الحد . وحتى أقبردى الدوادار لم يسلم من مماليكه فقد ثاروا عليه وحاصروه في داره وطالبوه بزيادة المرتبات ، ولولا تدخل السلطان وإرساله الوالى الذى قبض على جماعة منهم لأصاب أقبردى مكروه ، استطاع الوالى أن يقبض على بعضهم وضربهم بالبقارح وقطم أيدي البعض الآخر وهرب الباقون والتجأوا الى الجامع الأزهر واعتصموا به أياما ، ثم آل أمرهم فى النهاية الى نفي بعضهم الى قوص والبعض الآخر الى الشام . ولعل أكبر الفتن بين الأمراء وتمصب مماليك كل فريق منهم للآخر ما كان بين قانصوه خمسمائة أمير أخور كبير (٢) وبين أقبردى الدوادار فقد بدأت الفتنة بينهما ، ولما سافر قانصوه قام المماليك بنهب داره عن آخرها ، فلما عاد وعلم بذلك ازداد العداوة بينه وبين أقبردى

(٢) أمير أخور : المشرف على اصطبل السلطان أو الأمير .

حتى قام قانصوه خمسمائة على رأس الجند الذين تجمعوا عنده
وساروا جميعا الى منزل الأتابكي أزيك بالأزبكية ، واختلفت
الآراء عن هذا التجمع أهو موجه ضد السلطان أم ضد الأمير
أقبردى ، وخشى المقربون من السلطان أن يكون ذلك موجها
اليه ، واضطر السلطان الى النزول الى باب السلسلة وجلس في
المقعد المظل على ميدان الرميلة (٣) وعلق الصنجق السلطاني
ونودى في العسكر أن من كان في طاعة الله والسلطان يذهب
الى الرميلة ويقف تحت الصنجق السلطاني وذهب الجميع
واجتمعوا بالرميلة ، بلغ فداء السلطان من بالأزبكية وهرعوا
الى ميدان الرميلة ووقفوا تحت الصنجق السلطاني ، ولم يبق
في الأزبكية الا مماليك قانصوه خمسمائة وذهب الأمير أزيك
اليوسفى وطلب من الأتابكي أزيك التوجه لمقابلة السلطان ، ولما
غاب في القلعة توجه قانصوه خمسمائة الى جهة غير معلومة
وانتهت تلك الفتنة . ويبدو أن قانصوه خمسمائة الذي كان
يشيع خبر موت السلطان عندما أصابه مرض قبل تلك الفتنة
بقليل كان يرغب في الاستيلاء على السلطنة ، فقد جدد سور
باب للمنسلة وأثنأ به المقعد المظل على ميدان الرميلة والمبيت
وأثنأ حوله عدة أبراج ، واستقر الأمر للأمير أقبردى وأخذ
يقبض على رجال قانصوه خمسمائة ويسجنهم ويشفيهم وصار

(٣) ميدان الرميلة : هو ميدان صلاح الدين بحي القلعة .

صاحب الجبل والبعقد في الدولة ، وكافأ رجاله بتفريق الأضحية حتى أنها زادت على ما كان يفرقه السلطان . وأما الأتابكي أزيك فقد طلب من السلطان أن يتوجه الى مكة لكي يتفادى غضب الجلبان الذين عقدوا العزم على قتله وترك الأتابكية بعد أن ظل فيها نحواً من سبعة وعشرين عاماً . ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد فسرعان ما ثارت الفتنة مرة أخرى بين المماليك الجلبان من أتباع قانصوه خمسمائة الذين حاصروا أقبردى الدوادار في منزله ، وتطاولوا على السلطان ، وحاولوا اغتياله ، وكان من سبب تلك الفتنة مرض السلطان ذلك المرض الذي توفي فيه . ويبدو أن النزاع على الوظائف الكبيرة في الدولة كان من أكبر الأسباب في النزاع بين الأمراء كما كان للغيرة ورسل السوء أكبر الأثر في تزكية تلك الخلافات .

ثورات العربان :

لم تكن ثورات العربان في عهد قايتباي حديثة عهد على المماليك ، والواقع أن جذور ثورات العربان ترتد الى أوائل عهد دولة المماليك البحرية عندما حاولوا هدم تلك الدولة من أساسها وظلوا طوال حكمها وحكم دولة المماليك الجراكسة يتحينون الفرص للتخلص من المماليك الذين كانوا ينظرون اليهم على أنهم أقل منهم باعتبار أنه قد مسهم الرق وأن العرب هم أصحاب البلاد ، وقد أقحم العرب أنفسهم في كل ما كان يمكن أن

يؤدي إلى القضاء على الدولة المملوكية ومن ذلك اشتراكهم في مؤامرة الخليفة المتوكل على الله العباسي الذي كان يرغب في تفويض حكم السلطان برفوق . وكانت ثورات العربان - وهم من صميم الشعب - في عهد قايتباي أكثر ضراوة من أي عهد مضى، حتى أنهم طمعوا في دولة الأتراك وكادت تنتهي على أيديهم لولا القسوة التي استعملها أمراء قايتباي مثل يشبك وأقبردي فقد نكلا بالعرب واستعملوا معهم كل وسائل التعذيب حتى دفنوا بعضهم أحياء وكلها وسائل أقل ما يقال عنها أنها بعيدة كل البعد عن الانسانية وشملت ثورات العربان في عهد قايتباي الوجهين البحري والقبلي على السواء .

تحالف عربان البحيرة في سنة ٨٧٢ هـ على الخروج على طاعة السلطان وثاروا واحرقوا بيادر (٤) القمح ونهبوا بلاد المقطعين وأرسل السلطان اليهم حملة وعين السلطان شيخ العرب صقر في مشيخة عربان البحيرة وعزل كاشف البحيرة ، ثم كانت أنباء هزيمة العسكر المصري على يد شاه سوار ، وانصرف السلطان مؤقتا عن أمر العربان . ولما استتجد الأمير يشبك جن وكان بالبحيرة بالسلطان ضد عربان ليبد أرسل له حملة بها عدد كبير من الأمراء بقيادة الأتابكي أوزبك . وفي سنة ٨٧٧ هـ ذهب الأتابكي أوزبك الى البحيرة وعاد معه عدد من العربان مكبلين

(٤) البيادر : الأجران .

بالحديد فأمر السلطان بسجنهم في سجن المقشرة • وفي شوال سنة ٨٩١ هـ أرسل السلطان حملة الى البحيرة لقمع فتنة محمد الجويلي ودارت بين الطرفين معركة كبيرة قتل فيها عدد كبير من الطرفين ولم يتمكن الجيش من الجويلي وعادت الحملة كما سافرت • وأرسل السلطان حملة أخرى بقيادة الأمير أقبردى عادت في جمادى الآخرة سنة ٨٩٥ هـ •

عصى عرب الشرقية مثل زملائهم في جميع أنحاء الدولة وقد أرسل لهم السلطان قايتباي حملة في سنة ٨٧٢ هـ وعلى الرغم من أن السلطان خلع في سنة ٨٧٥ هـ على شيخ عربان الشرقية بقر بن بقر وقرره في مشيخة الشرقية بدلا من ابن عيسى بن بقر الذي سجن في سجن المقشرة بعدما ضرب بين يدي السلطان فان ثورات عربان الشرقية ظلت مستمرة بدليل ارسال حملة بقيادة الأمير حاجب الحجاب والأمير قانصوه الخفيف الايتالي وأمرهما السلطان بالقبض على كل من يجدونه من بني سعد وبني وائل ، وعاد الأمير تمر في صفر من العام التالي بعد أن قبض على المفسدين من العربان وأمر السلطان بقتل جماعة ممن قبض عليهم • ولما وصل الخبر الى الشرقية ثار العربان ثانية وقطعوا الطرق وأخذوا يسلبون ثياب المسافرين ، وبلغ الاستهتار والجرأة بهم أن هجموا على القاهرة حتى وصلوا الى الحسينية ونهبوا الدكاكين وسلبوا الناس ثيابهم ، ولما بلغ السلطان ذلك

أرسل حملة حشد فيها كل قواده وأمراء الدولة وخرجوا مسرعين للقضاء على ذلك العبث ، وقد عاد الأتابكي أذربك ومعه بعض العربان فسجنوا في سجن المقشرة ، وظل الأمراء مقيمين في الشرقية لردع المفسدين . وتكرر هجوم عربان الشرقية على القاهرة في شعبان سنة ٨٧٩ هـ وبلغت بهم الجرأة أن نزعوا ثياب أحد الأمراء العشرات ، ووصلوا الى قناطر الأوز . ويبدو أن عربان غزالة حذوا حذو زملائهم عربان الشرقية فهجموا على الجيزة في ذى القعدة سنة ٨٧٩ هـ ونهبوا خيول المماليك وقتلوا بعض العلما وأطلقوا سراح المسجونين بسجن الجيزة ، استاء السلطان عندما سمع تلك الأخبار وأرسل عددا من الأمراء ولكنهم لم يظفروا بأحد من العربان المغيرين . وأراد السلطان أن يهرب العربان فأمر بقتل عمر بن أبى الشوارب في الحرم سنة ٨٨٠ هـ بعد أن ضرب بالمقارع بين يديه فشهر على جمل وقتل بقلوب ، كما شنق عددا من مشايخ العربان بالشرقية .

أما عرب الصعيد فكانوا أكثر ضراوة من عربان الوجه البحرى وقد كثر شرهم وزاد عن الحد وأرسل اليهم السلطان الحملة تلو الأخرى ففي سنة ٨٧٢ هـ أرسل اليهم حملة بقيادة الأمير يشبك الدوادار وعاد في جمادى الأولى سنة ٨٧٣ هـ بعد أن نهب بلادهم وأسر منهم ومن أولادهم عددا كبيرا وقيل انه أحضر منهم نحو أربعمائة امرأة وقد مات منهن عدد كبير من الجوع ،

وقد انتقم العربان لنسائهم فنهبوا المسافرين وعاثوا في الأرض
فسادا ، وكان الأمراء ينتهزون فرصة سفرهم الى الصعيد
للحصاد ويوقعون العربان عند حدهم ففي عام ٨٧٤ هـ ظل
يشبك بالصعيد سبعة أشهر ونكل بالعرب حتى قيل انه ارتكب
من أنواع العذاب ما لا يوصف فشوى بالنار وسلخ الجلود
ودفن احياء وغير ذلك وكافأه السلطان على ذلك وتعددت حملات
يشبك وسفره للصعيد بسبب العربان فسافر سنة ٨٨١ هـ للقضاء
على أولاد ابن عمر ولكنه عاد ولم يظفر بهم ، واستطاع أن
يقبض على يونس بن عمر عندما خاربهم في العام التالي وبعد أن
انتصر يشبك على بنى عمر قتل يونس وبعث برأسه الى القاهرة .
وعاد يشبك ومعه جماعة من بنى عمر ولما وصل القلعة أمر
السلطان بشنقهم على باب زويله وكانوا سبعة وقد تأسف عليهم
الكثير من الناس لأنهم على حد قول ابن اياس « كانوا خيار
بنى عمر ولكن كان للأمير يشبك عليهم ثأر قديم فافتضه » .
وظل فساد بنى عمر مستمرا وظلت حملات السلطان توجه اليهم
حتى عين السلطان في ذى القعدة سنة ٨٩٨ هـ داود بن سليمان
من أولاد بنى عمر وأمير عربان هواراة في امرة الوجه القبلى
ثم عين الأمير يشبك الدوادار أميرا على هواراة عوضا عن الأمير
أحمد بن عمر ولم يحدث أن تولى أحد الأمراء امرة العرب قبل
ذلك . وبعد أن عين السلطان داود بن سليمان أميرا على عربان

هوارة سرعان ما غضب من بنى عمر وأرسل اليهم الأمير أقبردى
الدوادر الذى قبض على جماعة منهم فى ربيع الآخر سنة ٨٩٠ هـ
وسجنهم فى البرج بالقلعة . والواقع أن العرب انتهزوا فرصة
انشغال الجيوش المملوكية بقتال العثمانيين وأرادوا احراج
الدولة المملوكية التى قاسوا على يديها الكثير وبلغ السلطان فى
رجب سنة ٨٧٣ بأنهم قالوا « ان مصر ما بقى بها من الجند الا
قليلا » وطمعوا فى الدولة فأمر السلطان لمن بقى فى القاهرة من
الجند بأن يركبوا فى كل يوم أحد وأربعاء ويسيروا الى جهة
المطرية ويعودوا ويشقوا القاهرة وفى أوساطهم السيوف
والتراكيش (٥) وهم على ظهر خيولهم اظهرا لهيبة الدولة .

السلطان وأولاد الناس :

أطلق على أبناء الأمراء اسم « أولاد الناس » وكان
يشاركهم فى هذا اللقب أولاد السلاطين الذين كانوا يلقبون عادة
« بالأسياذ » ، وقد أعطى أولاد الناس المرتبات كما منحوا
الامرات بما يتبعها من اقطاعات . قاسى أولاد الناس الكثير فى
عصر قايتباى حتى أن بعضهم رغب فى ترك مرتبه مما كانوا
يلاقونه من تأنيب السلطان فلما عرض السلطان فى رجب سنة
٨٧٢ هـ العسكر الذين كان يعدهم لحرب شاه سوار ، طلب من
أولاد الناس السفر الى الحرب أو تعيين بديل عنهم أو مائة

(٥) التراكش : الجعبة التى يوضع فيها السلاح .

دينار عوضا عن ذلك البديل . وفي صفر سنة ٨٧٣ هـ أوقف السلطان صرف مرتبات أولاد الناس وأحضر اليهم قوسا ثقيلا ومعه نشابة طومار وطلب منهم سحب القوس والنشابة وكان يقطع مرتب من لم يستطع أن يجذب القوس والنشابة ، وقاسى أولاد الناس من ذلك كثيرا ونزلوا من القلعة في حالة يرثى لها بسبب قطع مرتباتهم من جهة وتأنيب السلطان لهم من جهة أخرى . وحدث مثال ذلك عندما جلس السلطان على الدكة في الحوش السلطاني في ربيع الأول سنة ٨٧٣ هـ لتفرقة المرتبات وأحضر ثلاثة أقواس على ثلاث درجات من القوة وطلب من أولاد الناس جذب الأقواس فمن جذبها يصدر اليه الأمر بالسفر الى الحرب ، ومن لم يستطع يقطع مرتبه أو يحمل مائة دينار عوضا عن بديل للسفر . أعاد السلطان لأولاد الناس في رمضان سنة ٨٧٤ هـ نصف ما سبق أن أخذه منهم تلقائيا بدون وساطة أو شفاعة من أحد . وفي صفر سنة ٨٧٧ هـ أمر السلطان أولاد الناس بأن يلعبوا الرمح بين يديه على سبيل الامتحان وقاسوا من ذلك الكثير وأنب السلطان بعضهم . وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٢ عرض السلطان جماعة من أولاد الناس واختار بعضهم وأنعم عليهم بوظائف في الدولة .

السلطان والفقهاء (المتعمين) :

هم طبقة المثقفين وهم من صميم الشعب ، ويسمون في

المصطلح بالفقهاء أو المتعممين ، قاسوا كثيرا فى عهد السلطان قايتباى ، فى ربيع الأول سنة ٨٧٢ قطع السلطان مرتباتهم وفعل بهم ما فعله بأولاد الناس وصادرهم وفى سنة ٨٧٣ عندما تولى يشبك من مهدى منصب الوزارة قطع مرتبات اللحوم التى كانت للفقهاء باذن من السلطان ، وزاد يشبك فى التنكيل بهم وأراد أن يسترد منهم ما أخذوه فيما مضى ، وتم كل ذلك على يد قاسم شغيته نائبه ، وبعد قطع اللحوم عنهم أصبحت لاتصرف الا للمماليك .

سبق القول بأن بعض الفقهاء وقف للسلطان وقفات مشرفة وجريئة ومنتعوا عن الأفتاء على هوى السلطان ومنهم شيخ الاسلام أمين الدين الأقصرائى الذى رفض الأفتاء للسلطان فى الاعتداء على أوقاف المساجد والمدارس أثناء حرب شاه سوار وكذلك أثناء حرب حسن الطويل . وموقف الاقصرائى هذا ليس سوى رمزا لاتنتصار الفقهاء على طمع السلطان وبطشه ، هذا وقد سبق التنويه عن موقف الشيخ سراج الدين العيادى الشافعى عندما تحدث مع السلطان حديثا طويلا حثه فيه على عدم اهانة القضاة . وقد غضب السلطان من الاقصرائى والعيادى وان أخفى ذلك . وضرب السلطان بكلام العيادى عرض الحائط وأهان القضاة فى أحد مجالسه كما سبق القول .

وعندما أراد السلطان أن يأخذ على الأملاك أجر سنة كاملة

معجلاً عارض القاضى المالكى عبد الغنى بن تقى السلطان وأوضح أن أجره سنة كاملة سوف تثقل كاهل الناس وان كان ولا بد فليكن أجره خمسة أشهر مضافة الى الشهرين السابق أخذهما ، ولم يوافق السلطان فى بادىء الأمر ثم اضطر الى الرضوخ لأمر القاضى المالكى * وعلى الرغم من هذه المواقف المشرفة فهناك بعض القضاة ساروا فى فتواهم على هوى السلطان مثل الشيخ شهاب الدين أحمد الشينى عندما أفتى السلطان بجباية أجرة شهرين مقدما ، ولم ينج من ثورات العوام ضده *

الشعب :

المقصود بالشعب فى العصر المملوكى هو جميع سكان البلاد من غير جنس المماليك وطبقتهم ، ويدخل فى ذلك التجار ، والمثقفون والعناصر العربية التى حاز بعضهم الاقطاعات بالتزاماتها الحربية * واعتبر السادة أبناء الخلفاء من الشعب مع سمو مركزهم الأدبى ، وأما العوام أو العامة فأطلقت على جميع الرعايا من سكان المدن باستثناء رجال القلم ، وأطلق على الأثرياء من التجار اسم بياض العامة والسواد الأعظم من الشعب ممن يقولون عنهم ثروة فهم دونهم ، ثم هناك الحرافيش أو الزعر أو الزعار أو العياق (٦) وهم أدنى مراتب الشعب ، وليس لهم عمل ثابت

(٦) المقصود بهم الدعاء والرعاى وضعاف الخلق *

أو محدود وكان هؤلاء ينخرطون في مناسر الحرامية وكثيرا ما كان يستعملهم الأمراء ضد منافسيهم ، وكان العماد عليهم في الثورات الشعبية . ومن طبقات الشعب العرب أو العربان ثم هناك الفلاحون المشتغلون بالزراعة في القرى ، تلك هي طبقات الشعب في العصر المملوكي ، وكان العبء الأكبر من ظلم السلاطين والمماليك يقع عليهم ، قاسوا الكثير من المحن ، قاسوا من اعتداء الجند والأمراء ، ومن تغير العملات ومن انتشار الطواغين ومن فرض الضرائب الباهظة لتجهيز الحملات الحربية ولينعم السلاطين والأمراء بالعيش الرغد . وكان لارتفاع الأسعار أثر كبير فيما أحس به الشعب من ضائقة .

أرسل السلطان عدة حملات حربية الى الأطراف الشمالية للدولة وقد كبده أموالا طائلة ، اضطر معها الى أن يفرض الأموال الباهظة على التجار والمتسبين ، طلب السلطان من كسبى المحتسب ، أن يجمع أعيان التجار ، وطلب منهم السلطان أربعين ألف دينار لاعداد الحملة ، وبعد أخذ ورد بينهم وبين السلطان قرر عليهم اثني عشر ألف دينار في حالة اذا ما خرجت الحملة . ولنفس السبب قرر السلطان على بطريك النصارى ورئيس اليهود قدرا من المال . ولحق بالمقطعين بالشرقية ضرر كبير عندما قرر السلطان أخذ الخمس من خراج المقطعين بتلك

البلاد لاعداد الحملة ، وقبض على الفلاحين ليوفوا ما عليهم ،
وقد جى هذا الخمس لمدة عامين متواليين ومع ذلك لم تخرج
خيول من الشرقية ولم يفلت المتسبب في ذلك من غضب المماليك
الجلبان فنهبوا داره . ثم أحدث السلطان في سنة ٩٠١ مكسبا على
بيع الغلال وجعل على كل أردب نصف فضة . هذا بالاضافة الى
ما سبق توضيحه من مصادرات السلطان التي كان هدفها الأول
والأخير جمع المال . وفي الوقت الذي كان فيه الشعب في هذه
الضائقة وزع السلطان الاقطاعات الشاغرة عن الذين قتلوا في
حرب العثمانيين على الجند ، كما أثق السلطان على المماليك
أموالا طائلة عند نزول خيلهم الى الربيع . قاسى الشعب كثيرا
من تصرفات بعض المحتسبين وبالرغم من أن السلطان أبطل
المشاهرة التي كانت تتعلق بالمحتسب وهى نحو من ألف دينار
في الشهر الا أنها أعيدت بعد ذلك .

أحوال الأمن :

امتاز السلطان قايتباى بالحزم والضرب على أيدي العابثين،
ومع ذلك فقد اضطرب الأمن في القاهرة في أيامه وزاد تعدى
للصوص والمنسر والزعر ليس فقط على الشعب بل تعداه الى
السلطان والأسواق فقد سرقت خوند سورباى وبعض سرارى
الظاهر خشقدم ما يقرب من عشرين ألف دينار من خزانة
السلطان ، وتناول اللصوص على سرقة الأضرحة فسرق أحد

للصوص ستر الامام الليث بن سعد رضى الله عنه وعوقب على ذلك بقطع يده . وتجراً أحد الصناع بقاعة الذهب فنقبها وسرق عدة سبائك ذهب وشرائط وقبض عليه وأعاد ما سرقه ثم عوقب بالسجن ، وسرق من الخزانة أموال كثيرة واتضح أن السارق من البوابين بقاعة الدهيشه ولما عوقب اعترف بجريمته وسجن .

أما المنسر فقد تكررت حوادثه ، هجم رجاله على قيسارية جركس وقتلوا البواب ونهبوا الدكاكين ، وسطوا على زوار الامام الليث بن سعد وخطفوا عمائمهم وسلبوا النساء والرجال ملابسهم وامتد عبثهم حتى وصل الى باب القرافة ، وتعرضت أسواق باب الشعرية وباب اللوق وسوق التجار بجامع ابن طولون للنهب وسرقت منها بضائع كثيرة . وهجم المنسر على علاء الدين بن الصابونى أثناء وجوده بتربته وأخذوا ما كان بها .

وأما العبيد فقد ازداد شرهم وصاروا طائفتين تقاتل احدهما الأخرى حتى عجز الوالى عن ردعهم ولم يكن الزعر أقل شرا من العبيد فانقسموا الى طائفتين كذلك .

ومما زاد الطين بلة وقوع بعض حوادث قتل لأفراد ولم يتمكن الوالى ولا غيره من القاء القبض على المتسببين فى تلك الحوادث .

وحتى النقود لم تخل من التزيف وشارك بعض المسئولين

في الدولة في تلك الأعمال ، منهم مثقال الطواشي رأس نوبة السقاة وشخص يقال له تمرغا من ممالك الأتابكي أذربك فوجد في بيت مثقال آلة الضرب التي يصنعون بها الدراهم الزغل ، وعزم السلطان على قطع أيديهما وشفع فيهما لدى السلطان وتقرر تقي مثقال الساقى الى مكة وسجن تمرغا حتى مات ، كما قرر السلطان قطع أيدي ثمانية آخرين كانوا يعملون دراهم زغلا وكان بينهم شخص في الثمانين من عمره .

ثورات الشعب :

سبق أن أوضحت مواقف الفقهاء من السلطان وهم من ضميم الشعب كما سبق القول عن وقوف الباعة للسلطان وكيف أنه عندما حيل بينهم وبين مقابلته احتالوا حتى أسمعوا صوتهم وكيف أن السلطان كثيرا ما كان ينصفهم ويمكن أن نضيف هنا أن السلطان كان لا يستطيع مواجهة ثوراتهم وقد تكرر اعتراضهم لمواكبه بسبب ما أصابهم من النقود الجديدة التي ضربها السلطان والتي سببت لهم الكثير من المتاعب في حياتهم وأن السلطان كان يطلع الى القلعة من بين التراب وكان لا يشق القاهرة خوفا من هياج العامة وحتى لا يسمع بأذنيه سخطهم عليه ، وقد اضطر السلطان أن يلغى المعادة (٨) في التعامل

(٨) المعادة والميزان : المقصود بها تقييم النقود بالعدد والميزان .

بالعملة الجديدة التي فرضها وأصبحت تخرج بالميزان (٩) وكان ذلك في الذهب والفضة على السواء ، وكثيرا ما تعرض العامة لمن كان سببا في الحاق الأذى بهم عند السلطان سيما ما كان سببا فيما يقرر عليهم من أموال فقد ثاروا على الشيخ شهاب الدين أحمد الشينى عندما أفنى للسلطان بجباية الأموال على الأملاك مقدا لمدة شهرين وعزموا على قتله فاختمى وأسقط في يده ثم توجه الى مكة وجاور بها مدة • وذكر العامة بالحمد مواقف المشايخ من القضاة الذين ساندوهم عند السلطان • هذا وقد أقحم العامة أنفسهم في التدخل بين طوائف الممالك الثائرة وذلك لرغبتهم الملحة في النهب والسلب فكانوا ينهبون منزل المغلوب وسرعان ما ينقلبون على الغالب اذا ما لاح أن نجمه في أفول •

كان ارتفاع الأسعار من الأساليب التي أدت الى ثورة الشعب وكثيرا ما سمع السلطان ما ساءه من العوام واضطر في أكثر الأحيان الى التدخل بنفسه لتخفيف وطأة الغلاء ببيع القمح من شونه بأرخص الأثمان ، وكان لسياسة الأمير يشبك أثر بعيد المدى في ارتفاع الأسعار فكان يحتكر القمح ويبيعه بأسعار عالية ، كما كان لتكيله بالعربان في الصعيد أثر كبير في عدم وصول المحاصيل الى القاهرة • وحدث في عهد قايتباى أن ارتفع سعر القطن عام ٨٨٩هـ حتى وصل سعر القنطار الى ألف وأربعمائة

(٩) الاستادار : المشرف على شئون بيوت السلطان •

درهم ان وجد ، وكان لارتفاع أسعار البرسيم أثر كبير في ارتفاع أسعار المواشى وارتفاع أسعار اللحوم بالتالى • ومن سوء ما حدث اختكار أحد الأشخاص للملح فبز وجود الملح وجفت الملاحات • وحدث في احدى السنوات أيضا أن عز وجود الأوز والدجاج والخبز وأكل الناس خبز الذرة والدخن لأول مرة في تاريخهم ، وكان لاضطراب فيضان النيل في عهده أثر كبير في ارتفاع الأسعار •

الثورات في ولايات الدولة :

اندلعت الثورات في أنحاء الدولة في دمشق وحلب وحماه وجبل نابلس والجزيرة العربية ، ويرجع سبب معظم تلك الثورات الى ما كان يفرض على الأهالى من ضرائب والى ظلم الولاة ، وكثيرا ما تدخل السلطان وأمر بالغاء ما كان يفرض عليهم من مظالم • ومن تلك الثورات قيام أهل دمشق بالثورة على برهان الدين النابلسى وكيل السلطان فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ حتى رجموه ورموه بالسهام وأحرقوا داره ولولا تدخل نائب قلعة دمشق فى الأمر لما نجا من القتل ، وفى سنة ٨٩٨ هـ رجم أهل دمشق نائبها قانصوه اليحياوى واندلعت فى دمشق فتنة كبيرة • ثار أهالى حلب فى ذى الحجة سنة ٨٨٥ وقاتلوا محمد بن حسن بن الصوا الحلبى نائب القلعة بسبب المظالم التى أحدثها ، وقتل معه فرج بن أغلبك حاجب الحجاب • وأما

ثورة حلب في ذي القعدة سنة ٨٩٦ بين الأهالي والنائب فقد كانت ثورة عارمة ، قتل فيها من مماليك أزدمر نائب حلب سبعة عشر مملوكا وقتل من أهل حلب نحو من خمسين ، وأحرق أهل حلب بعض أتباع النائب بالنار ، ولولا تدخل قانصوه الغوري حاجب الحجاب لدمرت حلب عن آخرها وأسرع السلطان في ارسال ماماي الخاصكي الى حلب لمعرفة أسباب هذه الثورة العارمة . وأما عربان جبل نابلس فقد اقتتلوا فيما بينهم وقتل الاستادار (١٠) وجماعة من العربان وأرسل السلطان أقبردي الدوادار ليقضى على تلك الفتنة . هذا وكثيرا ما ثار أهالي جبل نابلس على ما فرض عليهم من ضرائب .

ثار أهالي حماه في سنة ٨٨٢ على نائبهم قراجا الطويل ورجموه وطرده منها وقتلوا دواداره وأحرقوه بسبب ظلمه للرعية ، وفي نفس العام ثار سيف أمير نغير وهزم نائب حماه وقتل الكثير من عسكره ولكن الدائرة دارت عليه وفر أمام ضربات نائب حماه . وفي سنة ٨٨٥ خرج على طاعة السلطان سيف أمير آل فضل بحماه وقتل بحماه وقتل أزدمر من أربك أحد أقارب السلطان ومعه بعض أمراء حماه . وعندما وصلت تلك الأنباء لمسامع السلطان جهز حملة كبيرة وعقد لواءها للأمير

(١٠) تعليق المقياس : تنطير عمود المقياس وقاعته بالزعفران عند وفاء النيل ويكون ذلك ايذانا بفتح السد خلف قناطر السد لتوصيل المياه للخليج .

يشبك الدوادار لردع سيف أمير ال فضل ، وسر يشبك بالسفر
الى تلك الجهات لكي يستريح ولو الى حين من الجلبان الذين
كانوا على شقاق تام معه ، ولرغبته في القضاء على دولة حسن
الطويل عندما هون له أحد الأعاجم أمرها لوجود خلافات بها ،
وخرج يشبك وفر سيف آل فضل الى الرها واحتفى بياينذر
وتقدم يشبك لحصار الرها ثم كان من أمره أن أسر وقتل كما
سيأتي تفصيل ذلك .

أما بلاد الحجاز فكثيرا ما تعرض الحجاج لغارات العربان
عليهم ولم يخشوا بأس أمراء الحج والعسكر الموجودين معهم .
هذا وقد وقعت بعض مظالم من الولاة سرعان ما كان السلطان
يأمر بالغاؤها .

الأحوال الاجتماعية :

نعم بحياة الترف والبذخ والثراء في عهد المماليك السلاطين
وحاشيتهم وكبار الأمراء وأتباعهم ، فكان كل منهم وكأنه
سلطان مصغر ، وبعض الكتاب والتجار . وتعدت حياة الترف
والبذخ القصور الى خارجها ، فلو أنظر لبعض ما تبقى من تلك
القصور يمكنه أن يتخيل ما كانت عليه من أبهة وجلال ، وإذا
كانت تلك القصور خالية إلا أنها لم تكن تبقى من أثائها وتحفها
واحتفظ به في مختلف متاحف العالم يدل على ما كانت تزدان

به وعلى ما كان يتمتع به أصحابها من ثراء . أما غالبية الشعب فكان يكدح لينعم الآخرون .

وامتاز عصر قايتباى الذى استطال قرابة الثلاثين عاما ، بكثرة احتفالات العرس والختان وحج بيت الله الحرام والعودة من الحملات الحربية مكبلين بالنصر ، ولعب الكره ، والاحتفال بوفاء النيل ، وفتح سد الأزبكية وهو حدث استجد فى عهده بعد انشاء بركة الأزبكية والقصور حولها . هذا ويبدو أنه كانت تقام حفلات عامة ينشر فيها المطربون والمطربات الذين كانوا يحيون الأفراح أيضا ومن هؤلاء المطربين الذين ذاع صيتهم وعظم أمرهم خديجة الرحايبية وكانت من أعيان المغاني ولها انشاد لطيف وأصلها من مغاني العرب ثم عظم أمرها وحظيت عند أرباب الدولة ورؤسائها وكانت غاية فى الجمال حسنة الغناء وافتنن بها الكثير من الناس .

ولما ذاع صيتها خشى يشبك من حيدر والى القاهرة من تأثيرها على الناس فأمر بالقبض عليها وأمر بضرها بين يديه وأخذ منها بعض المال واستكتبها عهدا بالأا تغنى ولا تحضر فى أى احتفال ونسب اليها أنها أقبلت أعيان الناس ، وبعد أن مرت تلك المحنة مرضت ثم ماتت بعد ثلاثين وحزن عليها الناس .

ومن الاحتفالات بختان أولاد الكتاب ختان أولاد كاتب السر ابن مزهر فى منزله ببركة الرطلى ، وكان احتفالا بهيجا

حضره الكثير من الأمراء المقدمين والعشرات وحضره الأمير جم
ابن عثمان الذي أطلق عليه مؤرخو العرب اسم الجمجمة والذي
بات عند كاتب السر تلك الليلة أيضا ، وتم الختان عندما كان
النيل في ذروة الفيضان ، وأمر كاتب السر سكان البركة بأن
يغالوا في اضاءة البيوت وأرسل لكل بيت من بيوت البركة
عشرة أرطال زيت ومائة مليئة بالأكل الفاخر من نفس أكل
كبار المدعوين ، وشارك سكان البركة كاتب السر أفراحه
فأوقدوا كل وسائل الاضاءة حتى كادت البركة تضيء بالنور
وانقلب الليل نهارا ، وخرجت البنت البكر من خدرها وبلغ أجر
المركب أربعة دنائير أشرفية ، واستمر هذا الاحتفال ثلاثة أيام
سويا ، واجتمع بالبركة أربعمائة مركب وأخذ ابن رحاب المعنى
يطلق أغانيه من جميع مغاني البلد من رجال ونساء وشقت
الزغاريد عنان السماء وأنفق في هذا الاحتفال أموال طائلة .
وكان لاشارة السلطان بأن يكون ذلك الحفل على أكبر مستوى
اظهارا لهيئة الدولة أمام الضيف العثماني أكبر الأثر في اظهاره
بهذا المظهر الفخم . وقد تغنى الشعراء بهذا الحفل وقال بعض
الشعراء :

طابت على بركة الرطلي ليلتنا	حتى تباهمت على الخلجان والبرك
حفت بفضوء مصابيح زهت ووغدت	تضيء في حندس الديجور والخلك
فكان لما ثناها حسن وقدها	تخفي شموس الضحى في دائرة الفلك

ومن ذلك قول الشمس القادري :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا لهم دليلا لدى الظلما من الذهب
حتى كان جلابيب الدجى رغبت عن لونها وكان الشمس لم تغب

أما زواج قانصوه خمسمائة بابنة الأتابكي أزيك فكان
زواجا تضرب به الأمثال حمل شوار العروس من الأزيكية الى
منزله بقناطر السماع (قرب مسجد السيدة زينب) ما يزيد على
أربعمائة حمال وصرف عليه نحو من مائتي ألف دينار ، وعمل
العرس بالأزيكية وأعدت فيه الأسمطة الحافلة ، وركب قانصوه
خمسمائة من باب السلسلة وسارت أمامه الأمراء المقدمون
بالشاش والقماش والخاصكية وبأيديهم الشموع الموقدة وسار
في القاهرة حتى وصل الى الأزيكية . ولم يعكر صفو هذه الليلة
البهيجة سوى اعتداء الجلبان على الأمراء المقدمين وخطف
الشموع من أيدي الخاصكية .

ومن احتفالات القاهرة الاحتفال بوفاء النيل واهب الحياة
للبلاد وكان السلطان يهتم بذلك غاية الاهتمام وحرص المؤرخون
على اثبات ذلك في يومياتهم وجرت العادة أن يقوم الأتابك بفتح
السد وتخليق المقياس (١١) ونظرا لغياب الأتابك في معظم عصر
قايتباي اما في الخارج للحرب ضد أعداء الدولة أو في السفر

(١١) النقره : خليط من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة الثلثين والثلث .

في أنحاء البلاد للقضاء على ثورات العربان ، فقد كان ينوب
عن الأتابك أمير مجلس أو غيره وكان ذلك يتم بأمر السلطان .
وكان المحمل يخرج في تجمل زائد حسب التقاليد القديمة ،
ولم يتأخر المحمل سوى عام ٨٧٥ حينما تأخر الى العشرين من
شوال وسبق وصف الاحتفال عندما حج السلطان . وكان
الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في القلعة وفي سنة ٨٨٨ هـ
أمر السلطان باقامة الخيمة الكبيرة المدورة التي أمر بصنعها
وبلغ ما أنفق عليها ثلاثة وثلاثين ألف دينار بالحوش السلطاني
وكان آخر مولد احتفل به السلطان في سنة ٩٠١ هـ . ودأب
السلطان أيضا على اقامة مواكب العيد وكانت مواكب حافلة .
واستمر الاحتفال بختم قراءة البخارى لا ينقطع طوال عهد
السلطان وكان أول ختم في عهده في رمضان سنة ٨٧٣ هـ
بالقلعة وحضره القضاة الأربعة وأعيان العلماء ووزعت الصرر
على العادة والخلع على أعيان العلماء . وكانت العادة أن يحتفل
بختم البخارى في مسجد القلعة ، واحتفل بقراءة البخارى من
أول رمضان سنة ٨٨٢ بالجامع الأزهر نظرا لغياب السلطان
وحضره القضاة الأربعة ووزعت الخلع والصرر على العادة ، ودعا
الحاضرون للسلطان بسلامة العودة ، وفي عامي ٨٩١ و ٨٩٢ هـ
احتفل بقراءة البخارى في الحوش السلطاني بقلعة الجبل خلافا
للعادة المتبعة .

اجتاح البلاد في عهد قايتباي عدة طواعين توفى فيها عدد كبير من السكان وأنشئت عدة مغاسل لتغسيل الموتى ودفنهم ، وقد رئي الشيخ بدر الدين بن الزيتوني بقصيدة من الزجل أهل مصر في طاعون سنة ٩٨٧ هـ . اجتاحت الزلازل البلاد في بعض الأحيان ولعل أعنف تلك الزلازل زلزال ٨٨٦ وقد ماجت منه الأرض واهتزت المآذن ومالت وسمع للأرض دوى كدوى الرحا وحدثت تلك الزلزلة بعد العصر وخرج القوم هائمين على وجوههم ، ومات في هذه الزلزلة قاضي القضاة شرف الدين موسى بن عيد الدمشقي سقطت عليه إحدى شرفات ايوان المدرسة الصالحية ، وقد صلى عليه السلطان قبل دفنه ، ومات من الزلزال أيضا الزيني أبو بكر بن القاضي عبد الباسط وكان مريضا في بيته ، فلما مال به البيت مات خوفا .

حرم السلطان على المرأة الا تلبس الا العصايب الطوان وشق الأمر عليهن أول الأمر وأضربن عن ذلك ثم لبسها اذا ماخرجن الى الأسواق فقط ثم عدلن عنها نهائيا الى لبس ماكن عليه قبل التحريم : وكان للمرأة مركز مرموق عند السلطان فلما توفى الشيخ قلعج الرومي الأدهمي شيخ زاوية السلطان بالمرج والزيات عين زوجته مكانه في مشيخة الزاوية .

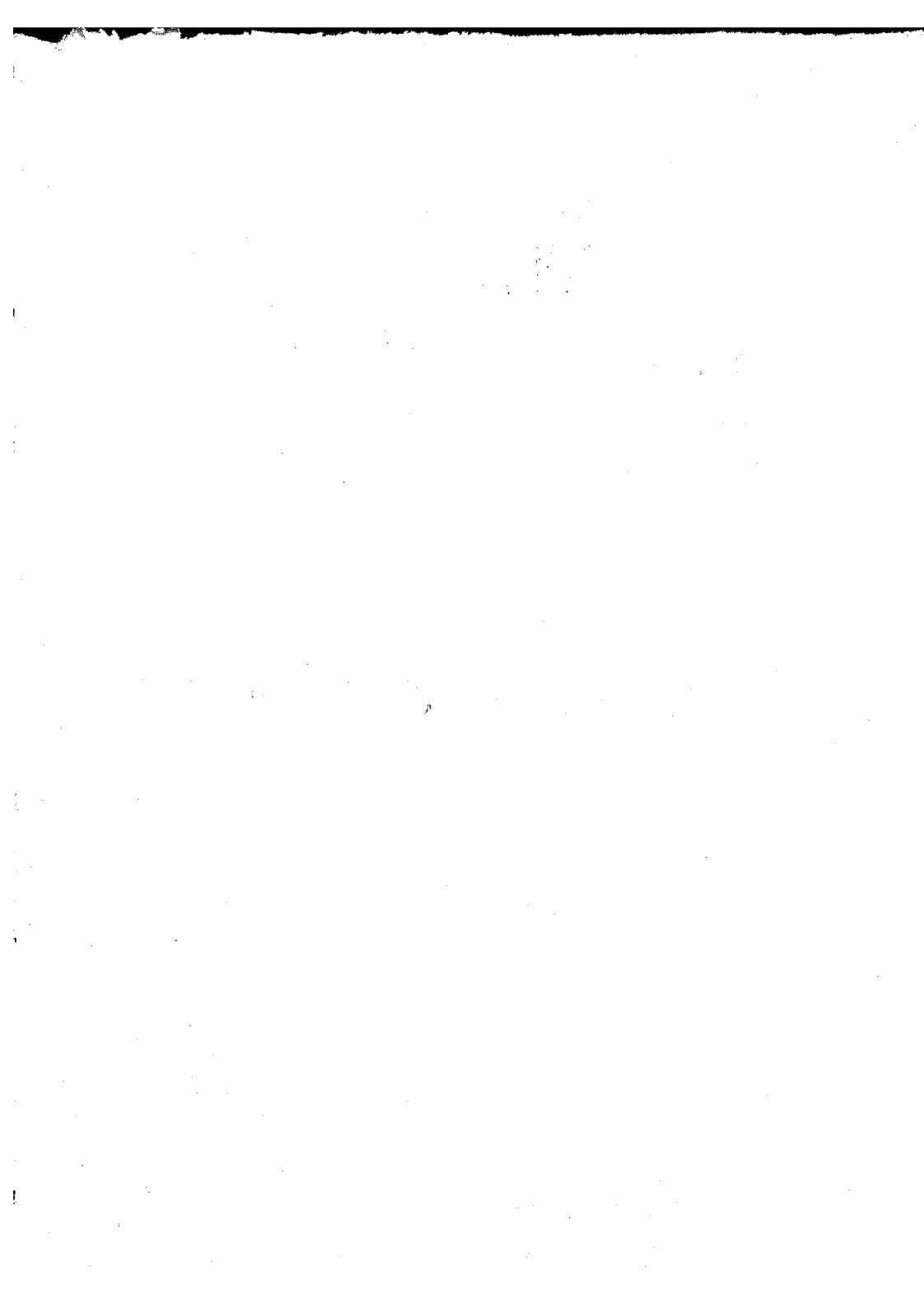
الأحوال الاقتصادية :

اهتم السلطان بالقناطر والجسور لحفظ مياه النيل وتنظيمها حتى يمكن زراعة الأراضي لامكان تحصيل الضرائب المفروضة عليها ، وكان لهبوط النيل المفاجيء في بعض سننى حكم ذلك السلطان أثر كبير في ارتفاع الأسعار وسبق القول بأن ارتفاع الأسعار كان نتيجة لسوء تدبير الحكام واحتكارهم لبعض الحاصلات مثل القمح ، وقد عز وجود القطن كذلك كما قام أحد الأشخاص باحتكار الملح ، على أن أكبر دافع لارتفاع الأسعار واضطراب الأحوال في البلاد هو تغيير العملات ، ففي سنة ٨٧٣ نودى على الفلوس الجديدة بأربع وعشرين نقرة الرطل وكانت قبلا بستة وثلاثين وفي سنة ٨٧٩ ضرب السلطان فلوسا جديدة ونودى عليها كل رطل بستة وثلاثين ونودى على الفلوس القديمة كل رطل بأربعة وعشرين وخسر الناس ثلث نقودهم من جراء ذلك وكانت الفلوس الجديدة تخرج بالعدد كل أربعة أفلاس بدرهم ١٠ وفي سنة ٨٨١ هـ صرف النصف الفضة بثمانية عشرة من الفلوس القديمة وصار للبضائع ثمانان سعر للفضة وسعر للفلوس ١٠ وفي نفس العام أبطل العدد وصار الرطل من الفلوس ستة وثلاثين بالميزان ، وتقرر الا يتعامل على الفضة المضروبة الا بالميزان وكذلك الذهب ، وكانت الفضة قد خفت جدا

وقد قاسى الشعب الكثير من جراء تغيير العملة ووقفوا
هرارا للسلطان الذى خشى بأسهم وأخذ يتوجه الى القلعة من بين
المقابر لكى يتحاشى لقاءهم فى القاهرة وحدث أن تصدى الناس
للسلطان عند عودته من قبة يشيك من مهدى فى رمضان سنة
٨٨٦ هـ بسبب الفلوس الجديدة وارتفاع أسعار البضائع ، ولما
وصل الى القلعة أمر بعقد مجلس فى المدرسة الصالحية ، واجتمع
القضاة الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص العلائى بن الصابونى
والمحتسب ، وأخذوا يتناقشون فى الموضوع ، وأخذ ناظر
الخاص يعارض فى الفلوس العتق لأنه كان قد فرغ من ضرب
فلوس جديدة عليها اسم السلطان وأراد أن يخرجها بأعلى من
الفلوس العتق ، ولما علم العوام بمعارضته ثاروا عليه فى وسط
المدرسة ورجموه ولولا تدخل كاتب السر لقتله العامة ، وبعد
مناقشات حامية وطويلة اتفق على أن تكون الفلوس كلها
العتق والجدد بالميزان بستة وثلاثين الرطل ونودى فى القاهرة
بذلك ..

الفصل الثالث

الملاقات الخارجية





General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

بلغت الدولة المصرية فى عهد المماليك الشراكسة الى أقصى اتساع لها خلال القرن الخامس عشر الميلادى • وامتدت حدودها الشمالية حتى شمال سوريا وأعلى الفرات وشرق آسيا الصغرى، وكان يسكن بجوار تلك الحدود قبائل التركمان ، وكانت تلك القبائل الخاضعة للدولة المملوكية كثيرة التمرد ، ولم يكن هناك ثمة خطر من ذلك التمرد على الدولة نفسها ، وإنما كمن ذلك الخطر فى استغلال الدول المجاورة لتلك القبائل لاثارة النزاع مع المماليك ، وتمثل تلك الدول فى تركمان الشاه البيضاء (آق قيونلو) و تركمان الشاه السوداء (قراقيونلو) ودولة الأتراك العثمانيين التى أضحت دولة عظمى فى الشرق الأوسط بعد الاستيلاء على القسطنطينية • أما البلاد التى فرضت الدولة المملوكية سيطرتها عليها عند حدودها الشمالية ، فهى ملطية والأبلستين وبلاد دلغادر وابن رمضان ودولة بنى قرمان وكثيرا ما ثارت تلك المناطق على نفوذ الدولة المملوكية بل وكثيرا

ما اندلعت الحروب بينها وبين جيرانها بسبب تلك الثورات •
كان للدولة المملوكية علاقات مع الدول الأفريقية المعاصرة
وأشهر تلك الدول دول شمالي أفريقيا وبلاد النوبة والتكرور
والحبشة وأما دول شمال أفريقية ذات الصلات مع الشراكسة
فدولة بنى حفص بتونس ، ودولة بنى عبد الواد بتلمسان ،
ودولة بنى مرين بفاس والمغرب ، وكانت هناك علاقات مع ملوك
الأندلس بغرناطة ، كما ارتبطت دولة المماليك الجراكسة والدول
الإسلامية في الهند بعلاقات •

وأما العالم المسيحي فقد كانت هناك علاقات مع الدول
المسيحية خصوصا البندقية صاحبة الاختكارات التجارية الواسعة
وكان الأوروبيون (الفرنج) ، الذين يمثلون القوى الصليبية ،
يهددون السواحل المصرية تهديدا مستمرا ، ولم يغب عن بالهم
طردهم من آخر معاقلهم في عكا على يد الأشرف خليل بن
قلاوون ، وبلغت بهم الجرأة في غارتهم الشهيرة على الاسكندرية
في عهد الأشرف شعبان بن قلاوون ، ومع استمرار غاراتهم لم
ير المماليك بدا من فتح قبرص وقد تمت لهم السيطرة عليها
وحاولوا فتح رودس ، ودفعهم الى ذلك الحاجة للقضاء على
أوكار القراصنة فيهما لحماية التجارة الخارجية التي كانت تعتبر
أكبر موارد الدولة المالية • وفي عهد السلطان قايتباي نجح
الفرنج في بعض غاراتهم على السواحل المصرية خصوصا

الاسكندرية ، ودفع ذلك السلطان قايتباى الى تحصين الشواطىء
لحمايتها من تلك الغارات . وقد حاولت بعض تلك القوى
المسيحية التحالف مع تركمان الشاه البيضاء ضد الدولة المملوكية
وضد العثمانيين على السواء . وتعتبر العلاقات مع اماره
دلغادر والشاه البيضاء والعثمانيين أهم العلاقات الخارجية في
عصر قايتباى .

العلاقات مع اماره دلغادر :

تعتبر اماره دلغادر أولى امارات التركمان ذات الشأن ،
وقد اتسعت رقعة ممتلكاتها حول مرعش واتخذت الأبلستين
عاصمة لها ، وظلت علاقات الود قائمة مع تلك الامارة منذ
نشأتها في عهد المماليك البحرية ، حتى كان عصر السلطان اينال
في عهد المماليك الشراكسة ، عندما اعتدى السلطان محمد
الفتاح العثماني على هذه الامارة ، واستنجد أميرها بسلطان مصر
الذى لم ينجده مراعاة للعلاقات الحسنة مع العثمانيين حين
ذاك . وعندما شب النزاع بين أمراء دلغادر تدخل السلطان
محمد الفاتح في شئون الامارة وناصر شاه سوار على أخيه
بوداق الذى كانت تناصره مصر ، وتولى شاه سوار عرش اماره
دلغادر ، وكان هذا أول خذلان للسياسة المصرية وقويت شوكة
شاه سوار والتف حوله التركمان ، وخطب له في عاصمته وضربت
السكة باسمه ، ثم أخذ يهاجم أطراف الدولة المملوكية في سنة

٨٧٢ هـ في مستهل حكم السلطان قايتباى • وفتح بذلك باب
شر كبير أدى الى ارسال ثلاث حملات ضد شاه سوار كبدت
الدولة المملوكية الكثير من المال والرجال ونالت من هيبتها حتى
تم القبض على شاه سوار وشنقه وتعليق جثته على باب زويلة •
صمم السلطان قايتباى على اتخاذ موقف حاسم ضد شاه
سوار ليعيده الى حظيرة الدولة ، وخشى المعاصرون من تلك
الحرب لما ترمى الى أسماعهم من ازدياد قوة سوار ومساندة
العثمانيين له ، حتى أن ابن اياس المؤرخ كان يرى أنه في امكان
السلطان استرضاء سوار بخلعه وهدية ويقضى على أسباب
الفتنة ، ولكنه « أخذ الأشياء بالعتسفة فعين له تجريده
ثقيلة » •

خرجت الحملة التى أعدها السلطان بقيادة الأمير جانى
بك قلقسىز أتابك العسكر ، وكان معظم الجند من الخشقدمية ،
أرسلهم السلطان فيما يبدو للتخلص منهم بدلا من نفيهم ،
ودفعت حاجة السلطان الى المال وخلو الخزينة منه الى التعسف
فى جمع الأموال وضيق على أولاد الناس وأمرهم اما السفر
أو دفع بديل للسفر ، وقرر على المباشرين مبالغ معينة وبعد أن
أعد للأمر عدته خرجت الحملة ، ولكن كتب لهذه الحملة الفشل
الذريع ، وأسر قائدها وقتل الكثير من أمرائها وعساكرها ،
وزادت شوكة سوار واستولى على عينتاب ، وتقهقر ما تبقى من

الجيش المملوكى الى حلب فى أسوأ حال وأرسل نائب الشام
أزبك الى السلطان بأخبار الحملة وما حدث لها ، وانتشرت
الأخبار فى القاهرة واضطربت الأحوال ، وزاد من هول الصدمة
ما أشيع من أن السلطان محمد الفاتح أرسل نجدة من عسكره
لمساعدة سوار * وتقوى سوار بما غنمه من الجيش المملوكى
وعزم على الزحف الى حلب * وهكذا أسدل الستار على الواقعة
الأولى بين شاه سوار والجيش المملوكى التى وقعت فى يوم
الاثين ٧ ذى القعدة سنة ٨٧٢ هـ * أخذ سوار يمهّد للزحف
على حلب فأعد منشورا أرسله للرعية بحلب والشام ، ويمكن
اعتبار ذلك المنشور من قبيل الحرب النفسية ، وقد أثبتته
الجوهري المؤرخ فى كتابه *

وجاء فى أول الطرة لفظة هو ، ثم فوق العلامة وما النصر
الا من عند الله ، وكتبت العلامة بقلم ثلث المظفر شاه سوار مكان
علامة سلطان مصر غير أنه بقلم الثلث ، ورشت العلامة بالرمل
المذهب ، ثم تحت العلامة نص الخطاب « السبب الباعث
لتسطير هذا الكتاب ، والمعنى الموجب لتحرير هذا الخطاب ، أن
المقر الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى الزينى المظفرى (١) ،
أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره ، أشار الى الأمن والأمان
بالدليل والبرهان بين التجار والقوافل وأبناء السبيل وغيرهم

(١) من الألقاب التى كانت موجودة فى العصر المملوكى .

من أرباب البيع والشراء والفلاحين ، والحراثين والصادرين والواردين والمترددین بالمملكة الشامية والحلبية والطرابلسية وغيرهم من الغرباء وأهل البلاد ، بالحضور التام بين الناس والأنام الى المملكة الدلفادية ، فمن حضروا فيها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم من غير تعارض ولا تمناع ولا تزاحم ، والله يحرسه بالملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين ، بمحمد وآله أجمعين • والله على ما يقول خير ، ومالنا من دون الله من ولى ولا نصير ، ان شاء الله تعالى • كتب في مستهل أول ربيعين من سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة • الحمد لله وكفى ، وصلى الله على محمد المصطفى « وعلى آخره في حاشية الكتاب بمقام مدينة الأبستين (٢) •

ولما وصل هذا الخطاب الى القاهرة ، وكانت أخبار الهزيمة قد وصلت أيضا سارع السلطان في ارسال حملة صغيرة لصيانة البلاد الحلبية من هجوم شاه سوار عليها بقيادة الأمير أزدمر الطويل الاينالى ، وأخذ السلطان يعد العدة لتجهيز حملة ثانية وعقد مجلس بالقلعة وأبدى رغبته في الحصول على أموال الأوقاف لينفق منها على العسكر وسبقت الاشارة الى موقف الشيخ أمين الدين الأقصرائى من السلطان وضاق السلطان ذرعا

(٢) الأبستين : بآسيا الصغرى وكانت عاصمة لامارة دلفادر •

بذلك الموقف ، وتآزمت الأمور معه بسبب فرار تمرينغا وكان ذلك سببا في تأخير الحملة الثانية الى سوار .

وعلى الرغم من هذه الظروف السيئة التي حاقت بالسلطان وانتشار الطاعون فان السلطان استطاع أن يتغلب على ذلك كله وجهاز حملة كبرى غادرت القاهرة في شعبان سنة ٨٧٣ بقيادة الأتابك أربك الذى عين باش العسكر ، ونزل السلطان تحت جنح الليل من القلعة الى أربك ومكث عنده ساعة وودعه وقد استطاع أربك انزال الهزيمة بسوار وعسكره وقتل مال باى الأقطع أخا سوار وكثيرا من عسكره ، وأرسلت رأس « مال باى » واثنين من أمراء سوار الى القاهرة ، طيف بها جميعا ثم علقت على باب زويلة وباب النصر . استطاع سوار بما عرف عنه من دهاء أن يستدرج الجيش المملوكى فى أماكن ضيقة تكثر فيها الأشجار ، وانقض السواد الأعظم من التركمان على العسكر المصرى بالقسى والنشاب والسيوف والأطبار ، ولم يتمكن الجيش المملوكى من التقهقر لضيق المكان وصعوبة الحركة فقتل منهم عدد لا يحصى وقتل عدد كبير من أمراء مصر والشام . وهكذا هزم جيش أربك وعادت فلوله الى القاهرة فى حالة لا تحسد عليها ، وانتشر الذعر فى القاهرة من قوة سوار وبطشه . حدثت انتصارات جزئية على شاه سوار فى العام لتالى ، أحدها على يد الأمير قرقمى الصغير نائب ملطيه الذى هزم جيش سوار وقتل

منه فوق الخمسمائة وأسر كثيرا من أمرائه وأقاربه وكان ذلك في صفر ٨٧٤ هـ ، وفي ربيع الآخر سنة ٨٧٤ اتصر أرسلان داود ابن ابراهيم بن رمضان المنافس لدلغادر على سوار واسترد منه قلعة سيس ، وسر السلطان لذلك الخبر وأرسل اليه خلعه .

ويبدو أن شاه سوار خشي من ازدياد نفوذ ابن رمضان ونائب ملطية فعمل على التقرب من السلطان وأطلق سراح جاني بك قلقسيز وأكرمه وطلب منه أن يكون سفيرا بينه وبين السلطان في الصلح .

عاد أزيك الى القاهرة ومعه اثنان من أخوة سوار ، شاه يراق أو شاه بضاع على حد قول ابن اياس وهو الأمير التابع لمصر والذي طرده شاه سوار ويحيى كاور قسيم شاه سوار في التمرد والخروج على طاعة السلطان ، ولما مثلا بين يدي السلطان خلع على أولهما وأمر بسجن الثاني في البرج بالقلعة ويبدو أن جاني بك قلقسيز لم يتدخل في الصلح بين السلطان وسوار اذ على الرغم من أن السلطان رجب به عندما صعدا القلعة الا أنه كان قد صدر عنه مرسوم يمنعه من دخول القاهرة وعاد هو قبل أن يدركه مرسوم السلطان الذي خلع عليه وعينه في امرة السلاح بعد أن كان أميرا كبيرا وفي ذلك تنزيل له .

خطا سوار خطوه نحو الصلح فأرسل رسولا من عنده ، لم يسمح له السلطان في مبدء الأمر أن يصعد الى القلعة ، ثم

أذن له بالصعود دون الهدية التي أحضرها معه ، وسلم السلطان
مكاتبة سيده ، التي عرض فيها الصلح مع السلطان بشروط
رفضها السلطان ، منها أن يكتب له تقليدا بامرة الأبنستين وأن
ينعم عليه بامرة مائة فارس وتقدمة ألف بحلب ، وفي نظير ذلك
يسلم عيتتاب للسلطان ، ولما لم تسفر المقابلة عن شيء نزل القاصد
من القلعة بغير خلعه ، واستأنف سوار الحرب ، وهاجم ابن
رمضان سنة ٨٧٥ هـ وهزمه واستولى على قلعة اياس .

انزعج السلطان لتلك الأخبار وخشى من هجوم سوار فجأة
على حلب فاتبع ما سبق أن اتبعه في الحملة الأولى وأرسل الأمير
اينال الأشقر رأس نوبة النوب ومعه حملة لحماية حلب ، وفي
رجب سنة ٨٧٥ استولى سوار على سيبس وقلعتها وأرسل
السلطان الأمير برسباي قرا ، ليسافر قبل خروج الحملة الثالثة
بقيادة الأمير يشبك الدوادر ، وهكذا انتهت الحملة الثانية التي
كتب فيها النصر الجزئي في أول الأمر ثم الهزيمة الساحقة بعد
ذلك .

خرجت الحملة التي أحسن السلطان اعدادها في سؤال
سنة ٨٧٥ بقيادة الأمير يشبك الدوادر أقدر رجال الدولة آنذاك
والذي تجمعت في يديه كل السلطات ، وقد فوض له السلطان
أمور البلاد الشامية والحلبية وغيرها من البلاد وجعل له الولاية
والعزل في جميع أحوال المملكة وكتب معه خمسمائة علامة ويكتب

(أى علامة السلطان على بياض) وجعل له التصرف فى جميع النواب والأمراء الانائب الشام ونائب حلب فقط ، وكان لخروجه يوم مشهود ، واستمرت الحملة تخرج الى قرب الظهر ، وشقوا القاهرة وخرجوا من باب النصر وتوجهوا الى مقر القيادة بالريدانية ، ونزل السلطان للمخيم مرتين ، وظل فى المرة الثانية من بعد العشاء حتى قرب الفجر • ثم رحل الأمير يشبك من الريدانية قاصدا السفر ، ثم خرج العسكر أفواجا أفواجا حتى سدد الفضاء ، وقد أحسن اختيار العسكر فكانوا من أعيان الشجعان وتفاعل الناس وحقق الله ظنهم • وبينما الحملة فى طريقها الى بلاد سوار ، اذ وردت الأخبار فى المحرم سنة ٨٧٦ هـ بأن سوارا قتل قرقماس الصغير نائب ملطيه الذى سبق له أن هزم شاه سوار ، وأخذ ينتقم منه فقبل انه أوقفه فى مكان وبني عليه حائطا وقيل بل علقه فى شجرة واستمر ينشبه بالنشاب حتى مات • ومر يشبك فى طريقه الى الشام بسرياقوس وبلييس والخطارة والصالحية ثم الى العريش وغزة ودمشق ، وانضمت له القوات الشامية وأمراء التركمان الموالون للسلطنة ، ومنهم بعض أفراد من أسرة دلقادر •

حاصر يشبك قلعة عينتاب وهزم سوار واستولى عليها فى صفر سنة ٨٧٦ هـ وفر شاه سوار بأولاده وأخوته ونقلهم الى قلعة زمنطو وتحصن بها ، ويرجع السبب فى سقوط عينتاب الى

شدة الحصار واحكام تصويب الهدف ، ولما أدرك المحاصرون بالقلعة أنها مأخوذة لا محالة أرسلوا في طلب الاستسلام ، ولم يكن لهم شرط سوى اعطائهم الأمان وأن يعطوا رزقا يقوم بأودهم ، وتم لهم ما أرادوا وسلموا القلعة ، وأمر يشبك بترميم القلعة ونقش عليها اسم السلطان وشحنها بالمؤن من قمح وشعير وملاها بالذخيرة من مختلف أنواع الأسلحة . وساءت أحوال سوار وأخذ يشبك يستولى على البلاد فاستولى على أدنه وطرسوس وطهر تلك البقاع من عسكر سوار .

لم تنقطع أخبار الحملة عن السلطان قايتباي بل كان يشبك يرسل اليه الرسول تلو الآخر ، وارسل اليه أحدهم ليخبر السلطان بما حدث وأن سوار قد انقض عنه غالب عسكره وطلب من السلطان المزيد من النفقة ، وارسل اليه السلطان مائة ألف دينار ، وحمل الرسول الثاني خطابا للسلطان فيه أنباء المعركة التي دارت بينه وبين سوار على نهر جينون وذكر فيه أنواع البطولات التي حدثت من الأمراء والجند وكيف أنه فر الى القلعة زمنطو وأنه توجه لحصارها وضربها بالمدافع .

ولما انصرف عن سوار عسكره ، أرسل يطلب الأمير تراز الشمنى قريب السلطان وأرسله الأمير يشبك وأرسل معه قاضي العسكر شمس الدين بن أجا الحلبي الحنفي ، ليطلب الصلح والحنو نظير تعهده بالطاعة والولاء للسلطنة ، ونظير قيامه

بالتقادم التي جرى العرف عليها ، اشترط سوار في نظير الدخول في الطاعة وتسليم مفاتيح القلاع أن يظل نائبا عن السلطان في قلعة درنده ، وأن يرسل بمفاتيحها الى السلطان صحبة ولده ، ولكن السلطان رفض وأصر على حضور سوار بنفسه لمقابلة السلطان .

ودار النقاش بين شمس الدين بن أجا مبعوث الأمير يشبك من مهدى الدوادار وبين شاه سوار ، رأينا أن ثبته بنصه من رحلة يشبك الظاهري الذي كتبها شمس الدين بن أجا الحلبي الحنفي قاضي العسكر اتماما للفائدة :

قلت : بعد أن حمدت الله وأثنيت عليه وتلوت قوله تعالى «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما الآية، ثم أوردت الحديث المشهور في حق الحسن بن علي عليهما السلام وأن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ان ابني هذا لسيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين وصار ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم بعد نيف وثلاثين سنة حين سلم حسن الأمر لمعاوية ، وذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم . وهذا الأمر قد أخذ حده وقد هلكت الرعية من غير فائدة حصلت والأولى الاذعان الى الحق وكف الأذى والأغراض النفسانية فانها ملجئة الى خسران الدنيا والآخرة .

فقال : انك قد وعظتنا وأحسنست لكن كان الأوجب عليك

أن تعظ جماعتك لأنهم ثلاث مرار يحضرون الى بعساكرهم
فيردهم الله ، على أعقابهم خائبين خاسرين ، ويرزقني النصر عليهم
لبغيهم على •

قلت : سبحان الله أتمتم تبدهون بالبغى فاذا قولتكم بما
صدر منكم تقولون بغيتم علينا ، ولاشك ولا خفاء أن مولانا
السلطان خلد الله ملكه هو خادم الحرمين الشريفين والامامة لأمر
المؤمنين ، وقد فوض اليه أمور المملكة ، وأنت وآباءك وأجدادك
من قبلك نواب السلطنة من قديم الزمان والى الآن واذا خرجتم
عن الطاعة وجب عليه قتالكم ، فهذا لا يكون من قبيل البغى
والباغى لا يطلق الا على من خرج عن الطاعة المفروضة •
وأما قولكم بأن الله نصركم عليهم لبغيهم فهذا أيضا ليس بدليل
من وجوه منها أن الله سبحانه وتعالى تارة يبلى المؤمنين ليضعف
لهم الأجر ، ومنها أن يكون ذلك سوء تدبير منهم ومخالفة ذوى
الآراء والدليل على ذلك قتلى أحد ، وكان من الحاضرين فى ذلك
الوقت قاضى عسكرى ••

فقال : هذا كله بتقدير الله •

فقلت : نعم ولكن سوء التدبير كان سببا لذلك لأن العبد
له الاختيار الجزوى ولولا ذلك لما استحق العقاب •

فقال : دع عنك هذا كله ، فو الله وتربة جدى ووالدى لو

تأخر أخذ القلعة خمسة أيام لكنك نصبت خيامي في مقابلة
خيامكم ورأيتم قتالي معكم ، فتبسمت عند ذلك •

فقال لي : مما تبسم •

فقلت : خيرا •

فقال : تكلم •

فقلت : أأأذن لي في الكلام •

فقال : نعم •

فقلت له : ذكرت أنك كنت تريد الحضور والقتال ولولا
أخذ القلعة فأنت اذا حضرت كنت تقا تل القلعة أو الغريم • فقال:
بل الغريم • قلت : الغريم حاضر ولا لك مانع من ذلك فما
سبب تقاعدك فسكت فلم يجب ، وعلم أني أفحمته • فقلت له
يامولانا الأمير انك طلبت شخصا تستمع مقصود الأمراء وهو
يسمع مقصودي ، فأما مقصود الأمراء ان كان لك رغبة في
الدخول للطاعة الشريفة ، ويحصل لك ما ترومه من المال
والاقطاع • قال : نعم • قلت : لا يكمل ذلك ولا يحصل
الا بتسليم قلعة درنده • فقال : ان هذين البلدين يعني سيبس
ودرنده لا بد أن السلطان نصره الله يثبت فيها شخصين ، ومن
المعلوم انهما لا يقومان في المهمات الشريفة بأكثر من مايه نفس ،
وأنا أقوم في كل منهما بخمسة آلاف نفر ويسلطنى السلطان على

أى عدو شاء وأراد فقلت : له هذا لا يمكن على هذا الوجه ،
لكن ان الملوك المجاورة للمملكة السلطانية فطنوا للعجز اذا
صار ذلك • وقصد مولانا السلطان خلد الله ملكه عدم ذلك
والا لا يتحصل للخزائن الشريفة من الجهتين شىء ، والعدر فى
ذلك ظاهر ، وأما مولانا يحصل له من هاتين الجهتين • فقال :
والله لا يحصل لى غير التعب ، فقلت له : اذا ظهر أن فى عدم
تسليم القلعتين المذكورتين نقضا للحرمة الشريفة ، ولا تقع
لمولانا فيهما واذا سلمهما لنواب السلطنة حصلت الحرمة التى
يرومها المقام الشريف ، والنفع لمولانا واقع محقق فما وجه
الامتناع • وكلما أتى بحجة رددتها وجعلتها عليه فى كلام يطول ،
ولما يئست من فلاحه ، وعلمت أنه لا يثقاد الى الصواب فقلت
فى خاطرى :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

فقلت : قد بلغتكم مراد الأمراء وجل قصدهم أن يعدوك من
أنفسهم ويقولوا نحن كنا غالب السبب فى هذه الأمور التى
وقعت بسبب المرحوم برد بك نائب الشام ، ولا نزيد الا صداقته
ولا يسرنا أن يكون أجنبيا فى خدمة الأبواب الشريفة وعداوته
أحب الينا من صداقة الغير لأنه منا والينا من وجوه شتى وأملته
فى المقر الأشرف أمير دوا دار بكل خير ووعدته بكل جميل منه
وأنه يضمن من المقام الشريف كل ما يرومه وزيادة وحصل بينى

وبينه محاورات كبيرة وانجلى الحال الى أنه قال : ان كان ولا بد
من تسليم القلاع لنواب السلطنة الشريفة ، فيحضر لكل قلعة
نائباً ، يتسلمها بشرط أن رجالي يحفظون القلعة الى حين رجوع
الخبر من السلطان والأمراء هم اخوتى يسألون صدقات مولانا
السلطان فى استقرارى بالقلاع ثانياً ، ويشفعون لى ذلك ، فأردت
أن أقول ما الفرق بين عدم تسليم القلعتين وبين هذه الصورة
فحبست نفسى عن ذلك ، لما تحققت من عدم رجوعه عن ضلاله ،
وتذكرت قول القائل :

أوضحتم الرشده فمن يهتدى **وقلتم الحق فمن يسمع**
فقلت له : بلغتك غرض الأمراء وما بقى الآن الا تبليغهم
غرضك وبالله المستعان *

فقال : فهل أجهز معك أحد أو فيك كفاية ؟ *

قلت : بل الواجب أن تجهز من يختار ليسمع جوابهم ،
وما قلت ذلك الا لما ظهر لى أنه علم بأنه ما أعجبنى هذا الكلام ،
فأردت الخلاص منه وفارقتة على هذا الحكم فلما رجعت الى
المكان الذى نزلت به جهز الى الأمير رستم عمه يلاطفنى ويخاشنى
فأجبت بجميع ما قال وبايعت الله سبحانه وتعالى ونزعت ثوب
الخوف من قلبى وقلت له فى الآخريا هذا انى ما جئت الا بطلب
منكم وما ضمنت أنا للمقر الأشرف أمير دوادار والكفلاء بأنى
أقضى لكم هذا الشغل وأخلص لكم القلاع ولاهم بعثونى متدخلا
عليكم ، فان أردتم نتاج الأمر فقد فصلت لكم وان قصدتم غير

ذلك فأنتهم المخيرون ، فقال لي : قصدنا أنك تجتهد في صلاح
الأمر على هذا الوجه فما وسعني الا أن قلت أبذل في ذلك
جهدي وطاقتي •

وبعد انتهاء الحديث مد شاه سوار السباط للقاصد ،
وخلع عليه خلعة من الحرير المذهب وطاستين صفارا من الفضة
وعشرين أشرفيا وأرسل معه قاصدا من قبله ليسمع رأى الأمير
الدوادار فيما عرضه ، وأراد شاه سوار أن يظهر قوته ويرهب
القاصد فعرض عسكريه واصطفوا في طريقه وصحبوه حتى أسفل
الجبل ، وتوجه هو ومعه قاصد شاه سوار الى مخيم يشبك
من مهدى حيث عرض عليه ما دار من حديث ورأيه هو فيه من
عدم الرغبة في تسليم القلاع ، واستدعى يشبك القاصد وحمله
رسالة جاء فيها :

« انك قلت جهز لنا من تثق بكلامه ، وسألت أن تدخل
في الطاعة الشريفة ، فأرسلنا اليك ، والدخول للطاعة الشريفة
لا يمكن الا بتسليم القلاع واعادتها للحوزة الشريفة ، فان كان
لك غرض تام في الدخول فتسلم القلاع لنواب السلطة الشريفة ،
وان كان غير ذلك فلا حاجة في ارسالك القصاد والمكاتبات
فلا تجهز بعدها مكاتبتة ولا قاصدا ، وكن أنت مجتهدا فيما
أنت بصدده ، ونحن كذلك ان شاء الله تعالى ، وهذا آخر الكلام
والسلام » •

ولما لم تسفر المفاوضات عن شيء ، استؤنفت الحرب ،
وحضر رسول من قبل السلطان يزيد العثماني ومعه هدية ليشبك ،
وشرح هذا الرسول مدى سرور السلطان العثماني لوصول
العساكر المنصورة وطلب موافاته بالأخبار وعرض الاستعداد
لارسال الغلال والمكاحل ، ويبدو أنه لم يفعل ذلك الا بعد
أن تأكد من الانتصار المحتم للجيش المملوكي والهزيمة لصنيعته
شاه سوار •

ولكى يأمن الأمير يشبك عدم تدخل العثمانيين وصاحب
العراقيين لنجدة شاه سوار أرسل رسولا لكل منهما ومعه هدية
تناسب المقام وأرسل الشيخ علاء الدين الحصني للسلطان بايزيد
وأرسل شمس الدين بن أجا لصاحب العراقيين •

ولما اشتدت الحرب والحصار التمس سوار الدخول في
مفاوضات الصلح مرة أخرى ، وطلب الأمير تمتاز الشمسي ،
فتوجه اليه ومعه قاضي العسكر ، وأعلن استسلامه على الفور ،
وقال انه سيلبس خلعة السلطان ويقبل له الأرض بشرط الا يقابل
يشبك خوفا على حياته من العسكر الذي أمضى فيهم قتلاه ولم
يوافق تمتاز على ذلك وتعهد لسوار ألا يقتل ولم يقبل
سوار وعادت الحرب ، ثم طلب سوار عودة تمتاز ونزل سوار
من قلعته في تفرقليل من عساكره ، وذهب الى مخيم يشبك ،
فلما وصل نزل عن فرسه واستقبله يشبك واقفا مرحبا ثم خلع

عليه * ولما أراد الانصراف طلب منه أن يتوجه الى نائب الشام
ليسلم عليه ويبدو أن ذلك ماتم الا ليتخلص يشبك من قسمه
بعدم التعرض لسوار بأذى وحتى يفعل به نائب الشام ما فعل ،
ولما دخل سوار الى خيمة برقوق أخذ يؤنبه على قتل العسكر
وعلى الخروج عن طاعة السلطان ، وأمر له بخلعة وضع فيها
قيدا حديديا ليوضع في رقبته وغضب تمراز من ذلك التصرف لما
فيه من حنث بما تعهد به لسوار ، وحاول رجال سوار انقاذ
سيدهم ، ولكن برقوقا كان قد أعد لكل شيء عدته ، وأعد كميناً
حول الخيمة أفنى رجال سوار عن آخرهم ، وحدثت مشادة بين
برقوق وتمرارز غضب بعدها تمرارز منه ومن يشبك حتى وصل
القاهرة *

وصلت أخبار القبض على سوار للسلطان ، وكتب عدة
فتاوى ، أفتى فيها العلماء والقضاة بأن سوار خارجي ولا يبقى
على قيد الحياة * وبعد استسلام سوار أخذ يشبك يرتب أمور
الأمارة ، رحل الى الشام ثم غزة وعند وصوله الى غزة أمر
السلطان بتبييض باب النصر وبابى زويلة ونقشت عليهما الرتوك
الذهب ، وأعدت العدة لاستقبال يشبك ، ولاقاه رجال الدولة
والعسكر عند خانقاه سرياقوسى ، ولما وصل الريدانية خرج اليه
القضاة الأربعة والمشايخ والعلماء وزينت القاهرة وبلغ كراء كل
بيت على الشارع أربعة دنانير أشرفية وكل دكان ديناراً أشرفياً

ودخل يشبك القاهرة ومعه سوار واخوته مكبلين فى الحديد ،
وكان دخول يشبك القاهرة من الايام المعدودة لاقته المعانى من
رجال ونساء من باب النصر الى سلم المدرج بالقلعة وتمت
المراسيم بالقلعة وانتقل السلطان الى الايوان ثم انتقل الى
الحوش وقابل سوار ورحب به وعاتبه عتابا خفيفا ثم امر بتسليمه
الى والى القاهرة وتسلم أيضا أخاه يحيى كاور الذى كان مسجونا
بالبرج منذ أيام حملة أزبك وشهر بسوار واخوته فى القاهرة
ثم شفق على باب زويله وأما باقى اخوته فقد شقوهم بالسيف ،
ماعدا أخاه سلمان الذى كان صغيرا ورق له الناس وقبل السلطان
شفاعة يشبك فيه •

يرجع نجاح الحملة الثالثة ضد شاه سوار الى شخصية
يشبك وحسن تديره وكياسته ، فعمل على راحة الدواب والرجال
أثناء قطع الطريق الطويل من القاهرة حتى موقع المعركة ، وأخذ
فى رفع المظالم فى جميع البقاع التى مر بها ، وعم عطاؤه أمراء
التركمان ومبعوثيهم اليه ، ولما وصل الى حلب أخذ فى تقوية
نفوذ نائبها فلم يسمح للأمراء التركمان أن يأتوا الى بابه الا عن
طريق نائب حلب ، وأعطاه مبالغ طائلة ليوزعها على أمراء
التركمان ، وأعاد له بذلك هيئته وهيبة الدولة •• وقد أثمرت
سياسة يشبك فهرع اليه من كان بنقل له أخبار شاه سوار
وخطه فكان يعمل على افسادها بخطط مضادة • وكان يعمل

خائن أو جاسوس بين رجاله •

مع قواده بنفسه في تنفيذ الخطط التي وضعها • ولم يوجد

وهكذا انتهت فتنة سوار التي كبدت الدولة المملوكية

الكثير من الأموال والأرواح ، وأنزلت الهزيمة بالجيش المملوكي

أكثر من مرة ، وأطمعت ملوك الشرق في الدولة ، وطمع العرب

في مصر وكاد الملك يخرج عن الجراكسه ، وأشرف سوار على

أخذ حلب ، وخطب له في الأبنستين وضربت السكة باسمه ، وذكر

الشمس ابن أجا « أن الأذى الذي حصل من سوار للرعية

والبلاد ، لم يحصل من تمرلك ، وهو أن تمرلك (٣) كانت

إقامته مدة يسيره ، وهذا تطاول أذاه وتمادى إلى خمس سنين » •

وسارت الأمور مع امارة دلفادر سيرا طبيعيا ، ولما زار

السلطان قايتباي الشام ، مثل شاه بداق بن دلفادر وأولاده بين

يدي السلطان مظهرين الولاء والخضوع وأحضر معه هدية

جلیلة من بينها ولداه قدمهما للسلطان ليعملا في خدمته ولم يعكر

صفو تلك العلاقات الطيبة سوى تدخل الدولة العثمانية المستمر

في شئون الاماره ، وكان هدفهم القضاء على النفوذ المصري هناك

ليخلو لهم الجو ، وكان علاء الدين الذي ولي امارة دلفادر بعد

أخيه بداق صنيعة في يد العثمانيين • فقد خرج كثيرا على

(٣) تمرلك : المقصود به تيمور لنگ الذي اغار على العالم الاسلامي تاشرا

الغراب والدمار •

المصريين وسبب لهم المتاعب ، ولما جاءت الأخبار الى القاهرة بأن
علاء الدولة الذى يسميه ابن اياس على دولات ، زحف الى
ملطيه انزعج السلطان وأرسل حملة بقيادة الأمير أزدمر ، وخرجت
الحملة فى رجب سنة ٨٨٨ هـ ، وتدخل السلطان العثمانى فى
النزاع وبلغ السلطان أنه أمد على دولات الذى شكاه له تصرفات
قايتباى بالجند ، فأرسل حملة ثانية بقيادة تمرآز الشمسى •
وجاءت الأخبار بهزيمة الجيش المملوكى على يد على دولات ، ثم
توجه وردبش نائب حلب لمحاربة على دولات وكان قد تقوى
بما أمد به العثمانيون من امدادات ، وهزم العسكر الحلبى وقتل
نائب الشام وكثيرا من العسكر المصرى والحلبى • وعلى الرغم
من أن على دولات أخذ يطلق سراح بعض الأمراء المأسورين عنده
فان السلطان أعد حملة جديدة بقيادة برسباى قرا غادرت البلاد
فى ربيع الآخر سنة ٨٩٠ ، ويبدو أن على دولات خشى بأس
الحملة الجديدة فأرسل يعرض الصلح ، وفى شوال سنة ٨٩٢
استطاع شاه بضاع بن دلغادر وكان مسجوناً فى قلعة حلب أن
يفر من سجنه وتوجه الى السلطان العثمانى الذى أمد به بالجند
وهجم على عسكر أخيه على دولات وأسر اثنين من أولاده
واستولى على أبنتين ، وسرعان ما دب الخلاف بين شاه بضاع
وبين السلطان العثمانى الذى أراد قتله وفر شاه بضاع ولجأ
الى السلطان قايتباى الذى أكرم وفادته ثم أرسله الى أسىوط
وقرر له ما يكفيه • أخذ على دولات يتوود الى المصريين بعد

هزيمته وهزيمة أحلافه من العثمانيين على يد تمرآز الشمسى •
وأدى موقف على دولآت هذا الى صدام حتمى مع العثمانيين
خرجت بسببه من القاهرة ثلاث حملآت بقيادة القائد ، أزبك
كما سيأتى • وبعد عهد قايتباى ظل على دولآت على ولائه لمصر
حتى قتله السلطان سليم سنة ٩٢١ هـ خليفة حليفه السابق •

العلاقات مع قبيلة الشاه البيضاء :

نشأت دولة الشاه البيضاء (نسبة الى الشاه البيضاء
اللى كانت توضع على أعلامهم) فى أراض بأرمينية وأعالى
الفرآت منحها لهم تيمورلنك مكافأة على انضمامها اليه ، وكانت
عاصمتها دياربكر ، واتسعت أملاكها حتى شملت بلاد فارس على
عهد حسن الطويل المعاصر لقايتباى • أنشأ حسن الطويل علاقات
مع الدول الأوربية كان بعضها ضد المماليك والعثمانيين ، وترجع
تبعية الشاه البيضاء للماليك الى أيام برسباى فخطب باسمه
وضربت السكة ، ومع ذلك فان دولة الشاه البيضاء كانت فى
أغلب تاريخها معادية للمماليك •

ولما وصلت الأخبار للسلطان قايتباى باستيلاء حسن الطويل
على ممالك العراق والقضاء على ملوكها ، خشى السلطان من
ذلك التوسع لما فيه من تقوية مركزه ، ولكنه كان مكتوف اليدين
بسبب انشغاله بحرب شاه سوار ، ويبدو أن حسن الطويل أدرك

أن ذلك التوسع لن يرضى قايتباى ، فأخذ يتملقه وينافقه وأرسل رسولا وعلى يده هدية للسلطان ورسالة جاء فيها أن ما ملكه من البلاد انما هو زيادة فى ممالك السلطان وأنه نائبه فيها ، وسلم السلطان عدة مفاتيح لعدة حصون وقلاع فأكرم قايتباى وفادة قاصده ، وحضر رسول ثان للقاهرة ومعه رأس أبو سعيد وقاصد آخر يبشر السلطان بما فعله بأبناء تيمورلنك ، وزالت موجة النفاق وظهرت حقيقة حسن الطويل بعد ما أدرك ما لحق بالجيش المملوكى على يد شاه سوار فهاجم البلاد الحلبية بجيش ثقيل ، وانزعج السلطان والعسكر من ذلك ، وتقدم حسن الطويل حتى وصل الى الرها وارتعد الناس فى القاهرة وخشوا بأس حسن الطويل وصاروا يقولون « هذا ما هو مثل شاه سوار وأن هذا لا يطاق » ويبدو أن أحداث تيمورلنك كانت مازالت ماثلة فى الأذهان وسيطر الخوف خشية أن يكون حسن الطويل صورة أخرى منه ، مما جعل السلطان يفكر فى الخروج بنفسه .

جهز السلطان حملة كمقدمة لحملة أخرى بقيادة جاني بك قلقسيز ، وفى تلك الأثناء استولى حسن الطويل على عدة قلاع ، وحاول أن يؤلب شاه بداق أمير دلغادر الموالى لمصر وأرسل له مكاتبة بماء الذهب كلها تهديد يطلب فيها تسليم القلاع وأن يكون تابعا له ، وأرسل شاه بداق المكاتبة للسلطان بالقاهرة ، وعندئذ أعد السلطان الحملة الكبرى بقيادة الأمير يشبك .

واحتاج السلطان الى الكثير من المال لاعداد تلك الحملات وعقد مجلس للقضاة حضره شيخ الاسلام أمين الدين الأقرائي الذى تحدث فيه بمثل ما تحدث فى المجلس السابق انعقاده أثناء اعداد حملة شاه سوار ، وقبيل خروج يشبك وصل للقاهرة المكتابة التى كان حسن الطويل قد أرسلها الى نائب الشام ، وأخذ يهدد فيها وكتب فى صدرها : « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، ونزل السلطان الى مخيم يشبك بالخانقاه وزاره وعرض عليه مكاتبة حسن الطويل ، وخرجت حملة يشبك ، وقبيل وصوله الى حلب كان نائبها قد ألقى القبض على بعض رجال الدولة وجهت اليهم تهمة الخيانة بمكاتبة حسن الطويل وأعدموا ، واستقبل يشبك فى حلب رسولا من عند حسن الطويل ومعه رسالة يطلب فيها الصلح وتبادل الأسرى ، ولم يلتفت يشبك الى هذا الطلب السابق معرفته بخداع ونفاق حسن الطويل ، وفى تلك الأثناء أرسل السلطان العثماني يعرض على يشبك المساعدة ضد حسن الطويل الذى كان أيضا فى حالة حرب مع العثمانيين مستعينا عليهم بالبندقية التى اشتركت معه فعلا فى الحرب ضد العثمانيين ، أكرم يشبك الرسول وأرسل معه رسوله الشمس بن أجا ومعه هدية مناسبة لانشاء علاقات بين البلدين . وقعت رسالته التى أرسلها مع سفير البندقية فى يد أحد العثمانيين ، وأرسلها محمد

الفتاح الى قايتباي وكانت الخطة أن يهاجم الفرنج المماليك
والعثمانيين من البحر ويقوم هو بالهجوم من البر ، أرسل يشبك
جنده لحرب حسن الطويل وانتصر عليه عند البيره ولم يقتل
من المصريين سوى أحد الأمراء ولم يقف الأمر بحسن الطويل عند
هذا الحد بل زاد في طغيانه وجهد محمل الحاج العراقي الى
الى الحجاز وعين شخصا يقال له رستم أميرا له وصحيبه قاض
وأمرهم أن يعملوا على أن يخطب له في المدينة باسم « الملك
العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين » ولما وصلوا الى
المدينة ضيقوا الخناق على قضاتها وأمروهم بأن يخطبوا باسم
حسن الطويل ، ولما خرج رستم وزميله الى مكة أرسل أهل
المدينة يخبرون أمير مكة بما حدث ، فلاقاهم قبل أن يدخلوا الى
مكة وقبض على أمير الحاج العراقي والقاضي ولم يتعرض للحاج
بسوء ، وأرسل رستم والقاضي للسلطان قايتباي فأمر بسجنهما
في البرج بالقلعة . وفي تلك الأثناء انتصر عسكر السلطان العثماني
على جيش حسن الطويل وسر السلطان بذلك الخبر . التمس
يشبك من السلطان العودة فعاد في رمضان سنة ٨٧٨ هـ . ولما
عجز حسن الطويل على محاربة جيش مصر وجيش العثمانيين
أرسل في المحرم ٨٧٩ رسولا ورسالة يعتذر فيها عما حصل
منه وأن ذلك لم يكن باختياره والتمس العفو ، فأكرم السلطان
ذلك القاصد وأظهر العفو على الرغم مما يعلمه السلطان جيدا
عنه .

تدخل نائب حلب في النزاع الذي وقع بين حسن الطويل
وابنه وأرسل جيشا لمساعدة ابنه الذي استنجد به ولكن قدر
لهذا الجيش أن يهزم شر هزيمة وانزعج السلطان لذلك الخبر
وأخذ يعد حملة بقيادة يشبك وأزبك وتمرار وغيرهم وبينما
هم على أهبة الاستعداد إذ وصلت الأخبار بأن عسكر حسن
الطويل عاد الى بلاده وسر السلطان لذلك ، وفي سنة ٨٨٠ هـ
عاد القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر وكان قد ذهب
رسولا الى حسن الطويل وهذه سفارته الثانية اليه وكانت
الأولى أثناء حملة شاه سوار وأخبر بأن الطاعون تفشى في
جيشه ومات بسببه عدد كبير ، فعدل السلطان عن ارسال الحملة
سيما وأن حسن الطويل قد بدا ضعفه ، وحضرت زوجته الى
القاهرة تطلب من السلطان أن يتدخل بين ابنها الذي كان مقيما
في القاهرة وبين أبيه ، ثم حدثت الفتن في بلاد حسن الطويل بينه
وبين أخيه أويس ودارت الحرب بينهما وقتل فيها أويس .

توفي حسن الطويل سنة ٨٨٣ واعتبر ابن اياس وفاته من
«جملة سعد قايتباي» وخلفه ابنه خليل الذي قتل في عام ٨٨٤ هـ
وخلفه أخوه يعقوب . حدثت اضطرابات في مملكة حسن الطويل
ووصلت الأخبار للقاهرة بأن السلطان العثماني أوشاك على
الاستيلاء عليها ، وعزم السلطان على ارسال حملة مع حسين بن

أغرلو ابن حسن الطويل الذى كان مقيما بالقاهرة ، ولكن شيئا لم يتم ، ثم مات حسين أثناء الحج ودفن بالمدينة .

اضطربت الأمور فى حماه وثار الأهالى هناك ، وخرج عن الطاعة سيف زعيم آل فضل وقتل نائب حماه وانزعج السلطان لذلك ، وطلب من الأمير يشبك سرعة الخروج للقضاء على ذلك الثائر ، واتتهز يشبك تلك الفرصة واقترح على السلطان القضاء على مملكة الشاه البيضاء بعد الاضطرابات التى سادتها ، ووافق السلطان على ذلك ، وشجع يشبك على ذلك أن أحد الأعاجم أغراه بدولة الشاه البيضاء ، ورأى فى السفر فرصة للابتعاد عن الجلبان الذين ثاروا عليه أكثر من مرة وعزموا على قتله .

خرج يشبك بجيشه ، وعندما اقترب من حماه هرب الثائر ولجأ الى الرها من بلاد الشاه البيضاء ، وتقدم يشبك وحاصر الرها وكان يحكمها بايندر من قبل يعقوب بك بن حسن الطويل . شدد يشبك الحصار وعرض بايندر تسليم الثائر ودفع مبلغ من المال فى نظير فك الحصار ولكن يشبك الواثق من النصر رفض ذلك وهجم على جيش بايندر الذى استمات فى القتال وكتب له النصر على الجيش المملوكى الذى قتل الكثير من أفراده وأسر قائده يشبك وهو على ظهر فرسه وأسر معه نائب الشام ونائب حماه . ظل يشبك فى الأسر ثلاثة أيام ، ثم قطع رأسه عبد أسود

من عبيد بايندر والمقيت جثته على الطريق ، وطيف برأسه وبكبار
الأسرى في ماردين •

هزت هذه الكارثة السلطان ، وعزم على الخروج بنفسه
لخوفه على البلاد الحلبية لأن معظم الأمراء كانوا في الأسر ،
لكنه أرسل الأمير أوزبك قائدا للجيش بدله ومنحه سلطات
مطلقة ، وصل أوزبك الى حلب عام ٨٨٦ هـ ووصلته الأخبار بأن
يعقوب لام بايندر في التسرع في قتل يشبك ، ولجأ أوزبك الى
السياسة وأرسل جائي بك حبيب رسولا ليعقوب ، ونجحت
المفاوضات وتم العفو عن كبار الأسرى وعادوا الى حلب • أرسل
يعقوب قاصدا الى مصر ليقدم الاعتذار عما وقع من نائب الرها ،
وأنه حدث بدون علمه ، وخلع عليه السلطان وتم الصلح مع
الشاه البيضاء • ثم أفرج السلطان في المحرم عام ٨٨٧ هـ عن أمين
المحمل العراقي وزميله من سجنهما بالبرج بالقلعة • وفي نفس
العام قتل سيف آل فضل سبب هذه الكارثة •

ظلت العلاقات طيبة بعد تلك الأحداث حتى نهاية عصر
قائمتاي وتوطدت عرى الصداقة بين دولة المماليك والشاه
البيضاء •

العلاقات مع الشاه السوداء :

نشأت دولة الشاه السوداء (نسبة الى الشاه السوداء
التي كانت توضع على أعلامهم) وهي إحدى القبائل التركمانية

في أرض أرمينية وأذربيجان واتخذت تبريز عاصمة لها ، وكانت
علاقتها بمصر أقرب الي الصداقة ، وساعدت مصر ضد منافستها
الشاه البيضاء وعدوها اللدود في نفس الوقت .

العلاقات مع بني عثمان :

كانت الدولة العثمانية أقوى الدول الواقعة على الحدود
الشمالية للدولة المملوكية ، وارتبطت الدولتان بعلاقات كانت
ودية للغاية أحيانا وعدائية لدرجة الحرب أحيانا أخرى ، وظلت
العلاقات الودية بين الدولتين قائمة طوال وجود خطر مشترك
يهدد الدولتين من ناحية الشرق أي من ناحية تيمورلنك وحلفائه ،
كما حرصت الدولة العثمانية على توطيد علاقاتها الطيبة مع
المماليك طوال انشغالها بالحرب في شبه جزيرة البلقان وضد
القوى الأوروبية المتحالفة في وجه التقدم العثماني في أوروبا .
وتمثلت تلك العلاقات الطيبة في تبادل الهدايا والرسائل بين
الدولتين ، وفي التهئة في المناسبات المختلفة ، وظل الحال على
ذلك حتى عهد السلطان بايزيد الذي كان معاصرا للسلطان
قايتباي وتحالفت القوتان ضد العدو المشترك ملك الشاه
البيضاء الذي تحالف مع القوى الأوروبية ضد العثمانيين . اتجه
العثمانيون الي آسيا الصغرى بعد أن وصلوا الي أقصى ما يمكن
أن يصلوا اليه في أوروبا ، وعملوا على القضاء على الدويلات
المستقلة والشبه مستقلة فيها ، ولاشك أن النتيجة الحتمية لتلك

السياسة كانت الصدام بين الدولتين . وكان سبب الاحتكاكات
الامارتين التركمانيتين : قرمان ودلفادر ، وهما تحت الحماية
الملوكية ، ويرجع تدخل العثمانيين في شئون الامارتين الى حكم
محمد الفاتح الذي نجح في أن يولى عرش الامارتين أميرين
مواليين للعثمانيين ، والى ترحيب السلطان بالأمرء اللاجئين اليه
من بلاط السلطان المملوكي خشقدم . واذا كان الاتفاق الذي
تم بين الدولتين على عدم تدخلهما في شئون الامارتين كان سببا
في قيام المودة بينهما حتى أوائل عهد قايتباي ، فسرعان ما ساءت
العلاقات بعد تولي السلطان بايزيد العرش وتدخل السلطان
قايتباي في النزاع بين السلطان وبين أخيه جم ، الذي لجأ الى
السلطان قايتباي فأكرم وقادته وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج
مع أسرته .

والواقع أن لجوء جم وغيره الى البلاط المملوكي كان يقابله
لجوء الكثير من المصريين الى البلاط العثماني ، ولم يكن
السلطان قايتباي من أولئك الذين يرغبون في الحرب الا اذا
اضطر اليها ، ولم يكن راغبا في الصدام مع العثمانيين بسبب
جم وانما أراد الاحتفاظ به ليكون ورقة رابحة يهدد بها بايزيد
كلما سولت له نفسه الصدام مع المماليك . ويبدو أن جم أدرك
ذلك تماما وأن اقامته في القاهرة وان كان يعيش في بجموحة من
العيش لا تعدو أن يكون أسيرا وليس لديه أمل في مساعدة

سلطان مصر له ضد أخيه ، فعرض على السلطان رغبته في ترك البلاد ، وعمل السلطان كثيرا على أن يثنيه عن رأيه ، كما تدخل بينه وبين أخيه السلطان الذي رفض مقترحات قايتباي ، وضاق جم باقامته في القاهرة ذرعا وعزم على الخروج لغزو آسيا الصغرى على غير رغبة السلطان ، وقدر لمشروعه الفشل ، ولم يفكر جم في العودة ثانية للقاهرة بل لجأ الى جزيرة رودس ونزل في ضيافة رئيس الاستبارية ، وتقلبت الأحوال بجم وتداولته الأيدي في الدول الأوروبية المعادية للعثمانيين . وظل الأمل يراود السلطان قايتباي في الحصول على جم وعودته الى بلاطه في القاهرة ليتخذ منه أداة للضغط على بايزيد ابان اندلاع الحروب بينهما ، فحاول أن يتسلمه من ملك فرنسا ورئيس الاستبارية ولكنه فشل ، وحاول مرة أخرى وطلب من البابا اينوسنت الثامن تسليم جم وأظهر استعداداه للتنازل عن بيت المقدس للبابوية أو الى ملك فرنسا ، وفشلت محاولته .

غضب السلطان بايزيد من حماية قايتباي لجم ورعايته له ، وأخذ يتحين الفرص لتصفية حسابه مع الدولة المملوكية وقد تجمعت لديه بعض الأسباب منها رفض قايتباي طلب بايزيد اصلاح بعض القنوات بمكة ، وعدم اتخاذه موقفا حازما ضد نائب جنده الذي استولى على الهدية المرسلة من الهند الى بايزيد وكان السبب المباشر الذي تذرع به بايزيد هو شكوى علاء الدولة أمير

دلغادر من تصرفات قايتباى ، فأمدته بقوة حربية عثمانية هاجم بها
ملطية التابعة للماليك مخالفا بذلك الاتفاق المعقود بين الدولتين .

عزم السلطان على محاربة علاء الدولة وحليفه ، فأرسل
حملة سنة ٨٨٩ هـ بقيادة تراز الشمسى ، انتصرت على علاء
الدولة وحلفائه العثمانيين وعادت ومعها عدد كبير من أعلام
العثمانيين ، وعلى الرغم من هذا الانتصار الساحق فإن السلطان
قايتباى كان يؤثر السلام ، وأرسل بعد مشورة أمراءه السياسى
الداهية جانى بك حبيب أحمد الأمراء ، الذى خرج من
الاسكندرية عام ٨٩٠ هـ ، ومعه تقليد من الخليفة العباسى الى
بايزيد « بأن يكون مقام السلطان على البلاد الرومية وما سيفتحه
الله على يده من البلاد الكفرية » ، وأرسل الخليفة رسالة شخصية
لتهدئة الفتنة بين السلطانين المملوكى والعثمانى ، وأرسل قايتباى
هدية فاخرة للسلطان وهدية ملك الهند التى كان نائب جده قد
استولى عليها مع اعتذار عما حدث . وفى نفس الوقت أعد
السلطان حملة حربية لاختضاع علاء الدولة الثائر على السلطنة .

قابل بايزيد كل ذلك بالاساءة ، ويبدو أنه كان يعمل على
تنفيذ خطته فى الاستيلاء على باقى امارات آسيا الصغرى وربما
التوسع على حساب الدولة المملوكية فقابل السفير المصرى بفتور
وأرسل جيشا لغزو بعض البلاد المملوكية ، ولم ير قايتباى بدا
من استئناف الحرب ، وأرسل قائده أذربك فى حملات ثلاث ،

بدأت الحملة الأولى سنة ٨٩٠ هـ وهزم فيها العثمانيون هزيمة
منكرة وأسر عدد كبير منهم مع قائدهم أحمد بك بن هرسك ،
وعمل بايزيد على الانتقام مما حدث ، وأعد جيشا ضخما وزحف
به ، وخرج أربك بحملة مجهزة أحسن تجهيز ، وعلى الرغم من
هذه الاستعدادات من قبل قايتباي ، إلا أنه مد يده للسلام
وأطلق سراح القائد العثماني الأسير وفك قيود الأسرى ، ولم
تثمر كل تلك المجاولات ، وزاد بايزيد ، في استعداداته ، وأرسل
قوة بحرية أخذت تقترب من الاسكندرونة ميناء حلب ليقطع
الطريق على أربك ، وسار الأسطول على الرغم من رفض البندقية
تموينه من قبرص التابعة لها ، وخدمت الظروف الطبيعية أربك إذ
اجتاح ذلك الأسطول عاصفة عاتية أغرقت معظم سفنه وشنت
ما تبقى ، وتقدم أربك ووصل إلى أذنه واستولى عليها بعد
حصار دام ثلاثة أشهر ، ووقع في يده كثير من الأسرى والغنائم
ولما وصلت الأخبار للقاهرة ، احتفل فيها سبعة أيام ودخل أربك
ظافرا للقاهرة ومعه كثير من العثمانيين آثروا العمل في خدمة
قايتباي وأفرد لهم مقررات في الدولة وأطلق عليهم اسم العثمانية
وظلوا حتى نهاية العصر المملوكي .

شق على بايزيد هزيمة العثمانيين ، فأرسل حملة ثالثة
استولت على سيس وطرسوس وغيرها ، واستجاب السلطان
قايتباي لرسول داود باشا وزير بايزيد الذي جاء إلى القاهرة

للمفاوضة في الصلح ، واشترط قايتباي اطلاق سراح الأسرى
المماليك وتسليم مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون ،
والواقع أن السلطان قايتباي لم يوافق على الدخول في مفاوضات
الصلح الا لما كانت تعانیه البلاد من سوء في أحوالها الاقتصادية
والتي ثورات الجبلان المتكررة . وعلى الرغم من صدق نية
السلطان قايتباي في اقرار السلام الا أن ذلك لم يقابل سوى
بالخديعة من قبل العثمانيين الذين حشدوا قواتهم قرب قيصرية
الروم بآسيا الصغرى ، ولم يقف قايتباي مكتوف اليدين فأرسل
حملة قوية ثالثة بقيادة أوزبك ، وعلى الرغم من تأكده من الموقف
العدائي السافر لخضمه الا أنه طلب من أوزبك أن يتخذ خطوة
نحو التسليم ، وأرسل أوزبك رسولا الى المعسكر العثماني ولما
استبطأه تحرك وحمل على العثمانيين حملة غنيمة واستعاد كوكك
واستولى على قلعة كواره ، وعاد الى القاهرة ودخلها في المحرم
سنة ٨٩٦ هـ دخول الظافرين وهكذا هزم العثمانيون ثلاث مرات
على يد الجيش المصرى بقيادة أوزبك .

والواقع أن السلطان قايتباي كان بعيد النظر بالنسبة
لموقف العثمانيين من بلاده ، فلم يكف عن الاستعداد للحرب
وجمع مستشاريه وتحدث اليهم قائلا : « ان ابن عثمان ليس
يراجع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحليبة قد
فسدت وآلت الى الخراب ، وأن التجار منعوا ما كان يجلب الي

مصر من الأصناف ، وأن المماليك الجلبان يرومون منى النفقة ،
وان لم أنفق عليهم شيئاً نهبوا مصر والقاهرة ونهبوا البيوت
وأحرقوها ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان الى البلاد الحلبية
لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم » • ولما كانت الخزائن
خالية فقد تم الاتفاق مع القضاة على تدبير المال ، وفي تلك
الأثناء وصل رسول عثمانى الى مصر وتم الصلح بين الطرفين
وتبودلت الهدايا والمجاملات • والواقع أن ابن عثمان لم يرجع
عن محاربة عسكر مصر كما توقع قايتباى وحدث النزاع الحتمى
في عهد السلطان سليم الذى كان في الواقع قصير النظر بتحالفه
مع البرتغاليين الذين استطاعت مدفعيتهم (٤) أن تحصد الجيش
الملوكى في موقعة مرج دابق في أيام الغورى وما تلى ذلك من
القضاء على الدولة المملوكية ، وتحمل سليم أعباء النزاع مع
البرتغاليين على بحار الهند والذى كان قد بدأ بين المماليك
والبرتغاليين •

بنو رمضان والمماليك :

ظل بنو رمضان على ولائهم للدولة المملوكية ، وناصروها في
كثير من المواقف ففى ربيع الآخر سنة ٨٧٤ هـ استطاع أمير
بنى رمضان أن يهزم شاه سوار واستولى على قلعة سيس التى

(٤) لم تذكر هذه الحقيقة الا فى Arnol and Grohman; The Islamic Book ولم أعثر على ذكر لها فى غيره من المراجع •

كانت في أيديهم ، ولما تمكن شاه سوار في المحرم سنة ٨٧٥ من هزيمة أمير بنى رمضان واستولى على قلعة اياس انزعج السلطان وأعد حملة كبيرة لحرب شاه سوار كما تقدم *

العلاقات مع تونس :

امتازت العلاقات بين الدولتين بالود والمجاملة ، وكانت الهدايا تتبادل بينهما في مختلف المناسبات سيما في موسم الحج ، وأكرم السلطان الحره زوجة ملك تونس عندما حضرت لتأدية فريضة الحج ، كما أكرم جميع من حضر معها *

العلاقات مع بنى نصر فى غرناطة :

كان للنزاع بين ملوك غرناطة أكبر الأثر فى التعجيل بسقوطها فى يد الفرنج ، وكثيرا ما لجأ ملوك غرناطة الى طلب العون من المماليك ، ولما ناء أمير غرناطة من طلب الجزية المفروضة عليه رفضها ، تقدمت جيوش فرديناند وايزابلا لمحاربه فأسرع يكتب للسلطان قايتباى يطلب منه النجدة ، وأرسل قاصدا من عنده ، ولم يتمكن السلطان من ارسال النجدة المطلوبة وكل ما قام به هو الكتابة الى قساوسة كنيسة القيامة بالقدس ، ليكتبوا للملك الفرنج ليرعوا مسلمى الأندلس ، وهدد السلطان فى حالة ما اذا أصاب مسلمى الأندلس أذى سيضطر الى القبض على القسس بالقيامه ويمنع الفرنج من دخول القيامة بل وهدد بهدمها ، ونفذ القسس طلب السلطان

وكتبوا للملك الفرنج ولكن ذلك لم يجد شيئا ، وسقطت غرناطة
في شعبان سنة ٨٩٧ هـ .

العلاقات مع بلاد التكرور :

كانت العلاقات طيبة مع بلاد التكرور ، وقد خدم الكثير
منهم في الجيش المملوكي ووصلوا الى مراكز عالية ، كما بنى
أحدهم مدرسة في مصر ، وكثيرا ما مروا بالبلاد في طريقهم الى
الحجاز ، واشتغل الكثير منهم بالتجارة ، وكان من بينهم تجار
لسلطان قايتباي .

العلاقات مع الهند :

من بين الدول الاسلامية بالهند التي ارتبطت بعلاقات ودية
مملكة مالوه تبودلت الرسائل بينها وبين السلطان قايتباي ،
كما حضر رسلها بالهدايا للسلطان وللخليفة العباسي ، وطلب أحد
رسلهم في جمادى الآخرة سنة ٨٧٩ هـ . تقليدا لسيدته بولاية
الهند من قبل الخليفة العباسي ، وأجيب الى طلبه وأرسل له
التقليد المطلوب وأنعم على القاصد .

العلاقات مع العالم المسيحي :

لم يهدأ للصليبيين بال من منذ سقوط عكا آخر معاقلهم
بالشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، فأخذوا يبدلون

المحاولة تلو الأخرى للنيل من الدولة المملوكية ، واستمرت غاراتهم ، وكان سلاطين المماليك لهم بالمرصاد ففي صفر سنة ٨٧٧ هـ قبض نائب الاسكندرية على جماعة من الفرنج ، كانوا يعيشون بالشواطىء المصرية وأمر السلطان بسجنهم في سجن المقشرة فأسلم جماعة منهم وسجن الباقون . وعث الفرنج بمراكبهم جهة الطينة ، واستطاع القاضي شرف الدين الأنصارى في ربيع الآخر سنة ٨٧٧ هـ من القبض على بعضهم ولما اعتدى الفرنج في المحرم سنة ٨٧٨ هـ على ثغر دمياط والاسكندرية وأسروا تسعة من المسلمين ، أسرع السلطان بإرسال قجماسى الأسحاقي لمطاردتهم حيثما كانوا ، واستطاع تجار الفرنج في رمضان سنة ٨٨٠ هـ أن يحتالوا على بعض تجار الاسكندرية حتى أسروهم وكان من بين الأسرى بعض تجار السلطان ، وغادروا الاسكندرية الى بلادهم ، ولما وصل الخبر للسلطان اشتد به الغضب وأمر بالقبض على تجار الفرنج بالاسكندرية وطلب اليهم أن يكتبوا لملوكهم لاطلاق سراح المأسورين ، وتمكن التجار الأسرى من فدية أنفسهم بما قرر عليهم من أموال .

أما قبرص فقد ظلت تؤدي الجزية المقررة عليها ، وسارع البنادقة الذين كانوا يحكمونها بعد تدخلهم بين أعضاء البيت المالكي الى ارسال الجزية للسلطان كما عقدوا معاهدة معه .

وحاولت البندقية أن تمد يد المعونة لحسن الطويل ملك
الشاه البيضاء وعقدت محالفة معه وحاربت في صفه ضد
العثمانيين مما اضطر العثمانيين الى التحالف مع المماليك لمواجهة
الخطر المشترك .

ولم توافق فرنسا والبابوية على تسليم جم للسلطان
قايتباى واكتفى ملك فرنسا بارسال هدية للسلطان .

وفي عهد السلطان قايتباى كانت العلاقات مع الحبشة
علاقات طيبة ، وعندما حضر في المحرم سنة ٨٨٦ رسول ملك
الحبشة ليسأل البطرئك في تعيين نائب عنه في بلادهم أكرمهم
السلطان ، وقبل هدية ملك الحبشة ، واحتفل بالرسول احتفالا
رسميا ، ومن طريف ما يذكر أنه أحضر ومن معه كراسى فلما
أرادوا الجلوس عليها في حضرة السلطان منعوا من ذلك .

مما سبق عرضه يتضح أن مصر في عهد قايتباى تمتعت
بمنزلة دولية ممتازة ، فظلت كما كانت مركزا للعالم الاسلامى ،
والتمس ملوك العالم الاسلامى قاطبة التقاليد والتفاويض بالحكم
من خليفة مصر بعد اذن السلطان المملوكى . واذا كانت الدولة
في عهده قد دخلت في حروب كثيرة مع الدول المجاورة لحدودها
الشمالية ، وعلى الرغم مما تكبده من مصاريف ورجال ،
خرجت مرفوعة الرأس لم تمس أراضيها وظلت مهية الجانب .

الفصل الرابع

أعمال العمران



إذا اعتبرنا عصر دولة المماليك الجراكسة هو العصر الماسى
بالتسبة للعمارة الاسلامية فى مصر ، فليس من شك أن فترة
حكم السلطان قايتباى تعتبر ذرة ذلك العصر ، فقد شغف هذا
السلطان بالتمير والبناء والانشاء أيما شغف ، وقد انتقل ذلك
الشغف الى رجال دولته من أمراء وقضاء وكتاب ، وانتشرت
عمائره وعمائرهم فى طول البلاد وعرضها فى شتى أنحاء
الامبراطورية المملوكية المترامية الأطراف . هذا وقد ليست مدينة
القاهرة فى عهده ثوبا قشيبا فمستها يد التنظيم والتمير ، وان
كان ذلك العمل لم ينج من اعتراض المعترضين . وليس المقصود
بذكر الأعمال العمرانية فيما يلى هو دراسة فنية لتلك الأعمال
فان ذلك يدخلنا فى تفاصيل تخرج بنا عن مقصود هذا الكتاب ،
وانما المقصود هو سرد لأعمال العمران التى تمت تحت حكم
السلطان قايتباى .

وعلى الرغم مما عرف عن السلطان قايتباى من الحرص

لدرجة الشح ، فانه مع ذلك أثنى الكثير على العمائر التي أقامها في مصر وسوريا وبلاد العرب فضلا عما أنفقه على اصلاح آثار أسلافه والتي نقش اسمه عليها ، وكان لأسفاره العديدة وتفقدته أنحاء الامبراطورية أكبر الأثر في احياء المشروعات العمرانية . ويدل تعدد المآذن التي خلفها ذلك السلطان واختلاف طرزها وما امتازت به من رشاقة وجمال على كثرة أولئك الذين صمموها ونبوغهم . وقد بلغ النحت على الحجر ذروته في عهد قايتباي وتعتبر زخارف واجهة وكالته أمام الواجهة القبلية للأزهر أروع تلك النماذج وقد أعجب بها جميع الرحالة الأجانب وعلماء الآثار حتى أن العالم الانجليزى الذائع الصيت وصاحب الباع الطويل في الدراسات الأثرية والتاريخية الاسلامية ستانلى لين بول قد صب نماذج من زخارف تلك الواجهة ووضعها في متحف فيكتوريا والبرت بثوكتزنجتن بلندن وقد سجل في مدينة القاهرة وحدها مما تبقى من آثار عهد ذلك السلطان ٣٨ أثرا وفى كل من الاسكندرية ورشيد والقرين والشيخ زياد بالمنيا أثر واحد . غير ما جده من آثار مثل قناطر أبو المنجا بناحية ميت نامه بمحافظة القليوبية . ترك السلطان قايتباي عدة وثائق للأوقاف التي حبسها على عمائره والأعمال الخيرية التي قررها ، وفى هذه الوثائق وصف لكثير من عمائر ذلك السلطان .

مدينة القاهرة :

أمر الأمير يشبك الدوادار بتوسيع الطرقات والشوارع والأزقة بمدينة القاهرة ، وطلب من القاضي فتح الدين السوهاجي أن يحكم بهدم ما أنشئ في الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى من أبنية وزباج وحوانيت وسقائف ومصاطب وغيرها ، وأصدر القاضي حكمه بهدم تلك المباني ، وتم الهدم فعلا وعلى الرغم من أن ذلك العمل عاد بالنفع الكثير من ناحية توسيع الطرقات إلا أنه عاد بالضرر على جماعة من الناس بسبب هدم مبانيهم ولم يستثن من ذلك أحدا حتى أنه هدم لخوذ شقرا ابنة الملك الناصر فرج ثلاثة رباع أحدهم كان واقعا أمام جامع الصالح طلائع خارج باب زويلة . وقد تعرض القاضي لسخط العامة بسبب فتواه . رأى الشاعر شهاب المنصوري في ذلك العمل تجديدا لشباب الشوارع والمساجد بالقاهرة وخذ ذلك العمل في قصيدة طويلة . وبعد أن تم توسيع الطرقات امتدت يد الإصلاح الى واجهات المساجد والجوامع وأبوابها فأصلحت وجلت زخارفها وبيضت حوائطها وكان لجامع الصالح طلائع ابن زريك الموجود حاليا بالقرب من باب زويلة (المتولى) أكبر نصيب من الإصلاح وقد ظهرت به عدة عواميد رخام أمر بتنظيفها وإظهارها . وأصدر يشبك الدوادار أوامره بتبييض الدكاكين ووجوه الرباع المظلة على الشوارع وعين للأشراف

على تلك الأعمال أحد أبناء الناس بعد أن منحه وظيفة شد
الطرق والذى أخذ يستحث الناس فى سرعة البياض والاصلاح
حتى عادت القاهرة وكأنها عروس فى ليلة الزفاف • ونال باب
زويلة شىء من تلك الأعمال فقلعت عنته المعروفة باسم الزلاقة
ومهدت الطريق أمامها وأغلقت لذلك عدة أيام واستعمل الأهالى
للدخول للقاهرة باب الفرج حتى تم اصلاح باب زويلة •

أضيف فى عهد قايتباى الى مدينة القاهرة حى جديد هو
حى الأزيكية ، نسبة لمنشئه الأمير أزبك من ططخ أحد الأمراء
البارزين فى عهد قايتباى ، وقد بدأ أزبك فى انشائه أواخر عام
٨٨٠ هـ • ومجمل تاريخ هذه البقعة أنها كانت عامرة ، بها
المناظر والبساتين وتسمى مناظر اللوق وكانت مياه النيل تصل
اليها من فم الخور بخليج أطلق عليه خايج الذكر ، ثم آل أمرها
الى الخراب فى عهد الناصر محمد بن قلاون ، الى أن قام أحد
الأهالى بايصال الماء اليها وأخذ يزرعها بعد الفيضان ، ثم خربت
وصارت كيما نا بها أشجار متناثره وبها بعض المزارات القديمة
وجامع الجاكى حتى أدركها الأمير أزبك وعمر بها مناخا (١)
لجماله وكان ساكنا بالقرب منها ، ثم أخذ يبنى القاعات والدور
والمقعد والحواصل وغيرها ومهد الأرض وأزال الأكوام الموجودة
بها وحفر بها بركة وأجرى لها الماء من الخليج الناصرى وجدد

(١) المناخ : الأمان المخصصة للجمال السلطانية •

قنطرة خليج الذكر ، وأحاط البركة برصيف ، وقد بذل في سبيل ذلك الكثير من الجهد والمال وقيل ان مبلغ ما صرف عليها يزيد على مائتى ألف دينار ويرى ابن اياس المؤرخ المعاصر « أن ذلك في غير طاعة الله ولا به نفع للمسلمين » ودب العمران الى ذلك الموقع وأخذ الناس في بناء القصور الفاخرة على تلك البركة ورغب الناس في سكنها وصارت مدينة بمفردها . ثم أنشأ بها أزبك جامعا كبيرا وجعل به خطبه وأنشأ به مئذنة عظيمة واعتنى بزخرفته وفيه يقول الشيخ شمس الدين القادري :

بني جامعا لله يلتمس الرضا	به ونجاة من اليم عقابه
وفكر في الحشر الذي عقباته	طوال يهول المرء قطع عقابه
فاكرم به من جامع من ثوى به	فلم يخل منشييه اذا من ثوابه
فيافوز عبد مؤمن قد جنى به	ثمارة لجود من رياض جناته
عظيم أمور لا يشوب مثابه	سواه لأجر نال كل المنا به

وقد هدم ذلك المسجد في أوائل هذا القرن . وأنشأ أزبك حول الجامع الرباع والحمامات والقياسر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع ، وظل ساكنا بقصوره متمتعا بها حتى مات ومازال اسمه يطلق على حي الأزبكية حتى الآن . وفي شعبان سنة ٨٩٠ هـ كان أول فتح لسد بركة الأزبكية وكان يوما مشهودا ، دعا فيه أزبك الأمراء المقدمين في قصره المطل على

البركة ، وظل فتح ذلك السد كل عام من الأيام المعددة يدونه المؤرخون في حولياتهم ، وكانت توقد حول البركة مختلف وسائل الاضاءة وتعمل بها حراقة (٢) تظ وتدخل اليها المراكب، وتقام حول البركة الخيام ويلهو فيها القوم ما شاء لهم أن يلهو وألف الشيخ شمس الدين القادري في بركة الأزبكية مقامة كلها غرر . ولما كملت عمارة الأزبكية ودخل اليها الماء أنعم السلطان على أربك بأرضها وكتب له بذلك وثيقة وكانت تلك الأرض موقوفة على خزائن السلاح .

وجدير بالذكر أن نشير الى أن السلطان كان يتفقد عمائرہ وعمائر أمرائه وكان يلبي دعوتهم لزيارتها وحدث في جماد الأول سنة ٨٨٢ هـ عندما انتهت عمارة الأزبكية دعا أربك السلطان الذى حضر وبات عنده في ضيافته ، وقدم له أربك الهدايا ولكنه رفضها .

ومن التنظيمات التى تمت في مدينة القاهرة أمر السلطان في سنة ٨٩٥ هـ بنقل سوق الحمير من باب الميدان الى جوار مدرسة قانى باى الجركسى الموجودة حاليا بحى السيدة عائشة . وصونا لنظافة القاهرة ولما كان يعترئها من طواعين ، أمر يشبك من مهدى ببناء مغسل بجوار مدرسة السلطان حسن

(٢) الحراقة : نوع من السفن الحربية ، استعملت لحمل الأسلحة النارية وكانت تظهر فى الاستعراضات التى تقام فى الاحتفالات .

حتى تحمل اليه جث الموتى حيث يغسلون ثم ينقلون الى
المقابر *

واحتراما لبيوت الله ولمنع الضوضاء عن المصلين أمر
السلطان بازالة الدكاكين المستحدثة أسفل شبايك جامع المؤيد
وجامع الأشرف برسباى بالصاغة *

أمر السلطان بتحديد الميدان الناصرى فى ذى القعدة سنة
٨٩٧ هـ وكان المشرف على عمارته الأتابكى أزيك * كما أمر
بازالة سبيل جاني بك الفقيه أمير سلاح لاعتراضه الطريق العام *
كان يشرف على انجاز عمائر السلطان أمراء دولته وكان
هو دائب النزول من القلعة لتتبعها والمرور عليها ، ويبدو أنه
كان للسلطان عدد من المهندسين الذين يقومون بتصميم تلك
المباني تحت اشراف رؤساء لهم ، منهم البدرى بدر الدين محمد
ابن الكويز الذى عينه السلطان فى ذلك المنصب فى شوال سنة
٨٧٤ هـ عوضا عن البدرى حسن بن الطولونى الذى عزله
السلطان ، وظل ابن الكويز فى وظيفته حتى توفى فى شعبان
سنة ٨٨٥ هـ فعهد السلطان الى البدرى حسن بن الطولونى
بمهام هذه الوظيفة فى صفر سنة ٨٨٦ هـ * وان تنوع طرز تلك
المباني خصوصا المآذن ليدل على أنه كان هناك عدد من المهندسين
الذين يقومون بتصميم تلك الأعمال للسلطان ولرجال دولته *

عمائر السلطان بمصر :

يمكن تقسيم عمائر السلطان بمصر الى العمائر الجنائزية والدينية والعمائر المدنية وتشمل عمائر المنافع العامة ثم العمائر الحربية .

تعتبر تربة السلطان وجامعه الذي بدأ تشييدهما في شوال سنة ٨٧٤ هـ في الجبانة الشرقية والتي اشتهرت باسم صحراء قايتباى وعرفت خطأ باسم مقابر الخلفاء وحقيقة أمرها أنها مقابر السلاطين اذ لم يدفن فيها خليفة عباسى واحد وانما دفنوا في قبتهم بجوار مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، تعتبر من أروع العمائر الاسلامية الجنائزية والدينية فى مصر ، وهى تتكون من التربة والمسجد وما زالت الخطبة مقامة به منذ قررها السلطان ، والسييل والصهريج يعلوهما الكتاب والمزيره وخلاوى الصوفية . وأقيمت الشعائر الدينية فى المدرسة فى رجب سنة ٨٧٩ هـ ونظم السلطان أمورها فعين الشيخ أبابعد الله الفلجاني المغربي قاضى الجماعة فى مشيخة التربة والشيخ أبوالفضل المحروقى خطيبا لها ، وبدر الدين الماردانى شيخا للميقاتية والشيخ ناصر الدين الأخميسى فى قراءة المصحف ، والعلائى على بن خاص بك خازنا للكتب ، وقرر بها ثلاثين صوفيا يحضرون الصلوات الخمس ، وبني لهم حول التربة عدة بيوت يسكنون فيها دائما ورتب لهم ما يحتاجون اليه من مأكّل

ومشرب * والواقع أن الزائر لهذه التربة يبهره جمالها وتناسق
أجزائها والدقة التي اتبعت في بنائها وزخرفتها * ولم تكن هذه
التربة سوى نواة لمنشأة أقامها السلطان قايتباي في هذه المنطقة
كما سيأتى وقد أدار حولها سورا به عدة أبواب ما زال باقيا
منها بابان حتى الآن ، ويبدو أن السلطان أراد أن يحاكي بتلك
المجموعة ، المجموعة التي شرع السلطان فرج بن برقوق في
اقامتها حول الخانقاه التي شيدها فوق جثمان والده والذي
أوصى أن يدفن في مكانها تحت أقدام بعض المتصوفة ، وإن كان
الموت قد حال بينه وبين اتمام ما شرع في بنائه * وكان المشرف
على تلك الأعمال الدوادار تغرى بردى الخازندار والمباشر لها
البدر بن الكريز *

أنشأ السلطان في جزيرة الروضة مسجدا يعتبر أقل مساجده
زخرفا نظرا لما أصابه ، كان هذا المسجد في الأصل مسجدا
أنشأه محمد بن فضل الله القاضى فخر الدين المعروف بالفخر ،
ولما جدده الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى عرف بجامع
المقسى ثم تخرب وتعطلت اقامة الشعائر الدينية ، فهدمه السلطان
قايتباي ، وأنشأ مكانه مسجده الذى ما زال قائما ، وفي سنة
١٢١٦ هـ احترق المسجد بسبب انفجار البارود وضاع بسبب
ذلك جميع نجارة المسجد القديمة * وفي ذى الحجة سنة ٨٨٦ هـ
نزل السلطان وتوجه الى الروضة لمعاينة المسجد ، وفي رجب

سنة ٨٩٦ انتهى العمل فيه ، وقد أشرف على بنائه البدر حسن بن الطولوني الذي أنشأ ناعورة أمامه على البحر ، وأخذ الناس يذهبون أفواجا الى المسجد لمشاهدتها ، واعتاد ابن الطولوني أن يقيم احتفالا هائلا ، وفي الليلة الرابعة عشره من الشهر العربي بالجامع وأطلق عليها اسم البدرية وكان يقام أمام المسجد على ساحل البحر مالا يحصى من الخيام ويمتلئ البحر بالمرابك وتضاء الأنوار الباهرة ويحضر الشعراء والوعاظ واستمر ذلك مدة طويلة . وجدير بالذكر أن جلال الدين السيوطي المؤرخ أففى بأنه لا يجوز البناء على ساحل البحر لأن الاجماع منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية ، ومع ذلك فإن المسجد عرف أيضا باسم السيوطي لأنه اما أقام به أو سكن بجواره .

وفي الكبش أنشأ السلطان مدرسة للجمعية مازالت قائمة حتى الآن وكان المشرف على عمارتها الأستاذار وتمتاز هذه المدرسة بزخارفها المحفورة في الحجر .

أنشأ السلطان مسجدا بغيظ العدة مكان مسجد سلطان شاه بن قرا الذي كان أمير طبلخاناة في دولة السلطان شعبان ابن حسين بن محمد بن قلاوون ، وظل المسجد قائما الى أن هدمه السلطان قايتباي ، وكان المشرف على الهدم الأمير تغرى

يردى القادري ، وأنشأ له منبراً ظل قائماً بالمسجد الى حوالى سنة ١٢٨٨ هـ عندما باعه ناظر المسجد محمد أفندى الكريدلى بمبلغ مائتين وخمسين جنيها الى أحد الأجانب فأخرجه من مصر ، وعاقب الخديو اسماعيل هذا الناظر والنجار الذى قام بفك المنبر بالنقى الى السودان ، واستقر المنبر القديم بعد اخراجه من مصر بمتحف فيكتوريا والبرت بلندن ومازال به حتى الآن وليس بالمتحف البريطانى كما هو متداول فى المراجع ، وقد جدد هذا المسجد فى عهد الخديو اسماعيل ، ويمتاز بوجود أعمدة ذات أضلاع مثمثة حفرت فيها الزخارف وهى تمثل نوعاً جديداً للعمود اسلامى كامل .

وفى رمضان سنة ٨٨٥ هـ أمر السلطان بتجديد قبة الامام الشافعى وزخرفتها وكان الشاد (أى المشرف) على عمارتها الخواجا شمس الدين بن الزمن .

وجدد السلطان المدرسة الصلاحية المجاورة لقبة الامام الشافعى .

ركب السلطان فى صفر سنة ٨٧٦ هـ وتوجه الى جامع عمرو بن العاص وعابن ما تهدم من حوائطه وأسقفه وأمر ببنائه من ماله الخاص .

وفى صفر سنة ٨٧٦ هـ أمر السلطان ابن الطولونى بتجديد عمارة الميضاة بجامع القلعة ، فوسعها ورمم فى الجامع وأنفق على

ذلك ألف دينار ، والمقصود بجامع القلعة المسجد الذي أنشأه
الناصر محمد بن قلاوون والذي ظل المسجد الرئيسى فى القلعة
تعقد فيه الاجتماعات وعقود الزواج لأبناء السلاطين ورجال
الدولة ، ويختم فيه البخارى وما شاكل ذلك ، وفى ذى الحجة
سنة ٨٩٢ هـ سقطت قبة الجامع على المحراب والمنبر وقتل بسبب
ذلك بواب الجامع وولده واهتزت القلعة للحادث ، وخرج
السلطان على عجل لمشاهدة ما حدث وأمر بمشال الأثرية من
الجامع ، وأمر بتجديد القبة والمنبر ، وجددت القبة واستعيض
عن المنبر الخشب بمنبر من الرخام الملون ، ومما يؤسف له أن
ذلك المنبر فقد ، وفى رجب سنة ٨٩٣ هـ تم تجديد القبة والمنبر .

نال الجامع الأزهر الكثير من الاصلاح فى عهد السلطان
قايتباى ، فقد هدم الباب الغربى للمسجد سنة ٨٧٣ هـ ، وأنشأ
مكانه الباب الحالى المحصور بين المدرستين الطيرسية
والأقبعاوية ، كما أنشأ على يمينه المنارة الرشيقية الحافلة
بالزخارف وفى سنة ٨٨١ هـ زار السلطان الجامع وكان معه
كاتب السر وبعض الأمراء ولما دخل الجامع طلب القضاة ، وعان
سطح المسجد وأمر بهدم الخلاوى المحدثه فوقه ، وأمر بترميم
الجامع وجدد دورة المياه ، وفى سنة ٩٠٠ هـ انتهى تجديد الجامع
على يد الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى ، وبلغت
قيمة ما صرف عليه خمسة عشر ألف دينار .

أمر السلطان بتجديد المدرسة المنصورية التي بناها المنصور قلاوون ضمن مجموعته الشهيرة • بالنحاسين بحى الجمالية وقام الأتابكى أزبك فى سنة ٨٩٩ هـ بتجديدها وعمل قبة على الفسقية الموجودة بها وجدد بها منبرا وأقام بها خطبة ، وخطب فيها فعلا ، ولم يسبقه أحد من الأتابكية بإقامة خطبة بها ، والواقع أن الأتابكى أزبك بعمله هذا خرج عن شرط الواقف ، ولما تولى الأتابكية تمتاز الشمس بعد أزبك أبطل الخطبة منها ، فلما قتل تمتاز وأعيد أزبك الى الأتابكية أعاد الخطبة ثانية •

أنشأ السلطان جامعا بالدقى تجاه الجزيرة الوسطانية ومازال هذا الأثر قائما حتى الآن وان كان قد اعتراه التغيير والتبديل • وفى دمياط أنشأ السلطان مدرسة مازالت قائمة حتى الآن وهى المدرسة المدبولية •

جدد السلطان جامع الرحمة وأشرف عليه شاد بك من صديق الأشرفى برسباى •

وجدد الجامع المعروف بشاكر بجوار قنطرة قديدار •
أنشأ جامع سلمون الغبار ومنارته وأنشأ بجانبه سبيلا •
جدد مزار الشيخ عماد الدين بجارة السقايين وبنى له قبة ومنارة ووسع أبوابه وجدد مقام سيدى ابراهيم الدسوقى •
جدد مقام سيدى أحمد البدوى •

وأشرف على كليهما مغلباى الأشرفى اينال المعروف
بالبهلوان .

جدد مزار اليسع قبلى جامع محمود بالقرافة تحت العارض
قريبا من ضريح ابن الفارض والمعروف بأخوة يوسف .

وجدد الزاوية الحمراء تجاه جامع قيذان وكان المشرف
عليها البدرى أبى البقاء بن الجيسان . جدد جامع الأمير زياد
ابن عمرو العتكى بناحية الشيخ زيادة بمحافظة المنيا . وزاوية
للعربان بطنبدا .

أنشأ زاوية خارج الخانقاه بجوار زاوية النبتيتى وجعل
بها فقراء مقيمين مع شيخهم محمود العجمى .

ساعد فى عمارة جامع الفتح بالقرب من القشاشين تحت
الربيع وأنشأ منارته .

أعاد الجزء المغتصب من المدرسة السيوفية وأقام مصالحتها .

أنشأ زاوية بين المرج والزيات .

أنشأ مدرسة بالاسكندرية .

أنشأ جامعا لطيفا خارج باب القرافة ، وقد هدم هذا المسجد
فى السنوات الأخيرة .

أنشأ مسجدا بالصالحية .

أنشأ منبرا من الحجر لخانقاه السلطان فرج بن برقوق
مازال باقيا حتى الآن •

• جدد الزاوية الحمراء •

• جدد المسجد النفيسى •

أنشأ مسجدا بالقرين ومازال الجامع قائما حتى الآن عليه
اسم السلطان •

• أنشأ بجهة العباسية بمحافظة الشرقية جامعا •

• أنشأ بصالحية قطيا جامعا •

أما العمائر الجنازية فقد أنشأ السلطان قبة فوق ضريح
الشيخ عبد الله المنوفى بالقرافة الشرقية بالقرب من مدفن السلطان
ومدرسته ، ومازالت هذه القبة قائمة حتى الآن •

وقام السلطان باتمام بناء قبة الأمير يشبك التى شرع فى
بنائها عند دور الحسينية والتى توفى قبل اتمامها والمعروفة الآن
باسم القبة الفداوية ، ومازالت قائمة حتى الآن بحى العباسية ،
وقد نقش السلطان اسمه عليها ، والواقع أن هذه القبة ليست
سوى جزء من مجموعة من المباني الضخمة أنشأها يشبك هناك
وجعلها متنزها وأقام بجوارها حقولا ومجارى مياه وسوق
وليشبك قبة أخرى ما زالت قائمة عند مدخل القصر الجمهورى
بالقبة وتنسب خطأ الى السلطان الغورى ، ولكنها من انشاء

الأمير يشنيك وأنشأ السلطان قبة بجوار مدرسته بالقرافة الشرقية
مازالت باقية ومعروفة باسم قبة الجلشنى .

تعددت عمائر السلطان المدنية وشملت جميع نواحي الحياة
في العصر المملوكى فمنها ما يخص العمارة السكنية والعمارة
التجارية والأعمال الخيرية والتعليم وشئون الرى من قناطر
وغيرها ، وكان الرفق بالدواب ملحوظا فأنشئت لهم عدة أحواض
في جميع أنحاء البلاد ، قد تخلف لنا من تلك الأحواض ثلاثة
بمدينة القاهرة . والوكالات عبارة عن مبان مكونة من عدة
طوابق الأرضى منها عبارة عن حوش مكشوف كبير تحديق به
الحواصل المعدة لحفظ بضائع التجارة ويصل اليه من الباب
العمومى بالواجهة الأصلية للمبنى وكان بهذه الواجهة عدة
دكاكين ، هذا ويلاحظ وجود مصلى بأحواش الوكالات وان
كانت فقدت في زمن غير معلوم . أما الأدوار العليا ويطلق عليها
اسم الرباع فكانت مخصصة للسكن اما للتجار أو لمن يشاء ،
وهى عبارة عن مساكن تفتح على ممر يطل على الصحن وكان
لهذه الأدوار باب خاص غير الباب الأسمى للمبنى يرتقى اليها
منه بواسطة سلالم ، وكانت شبابيك تلك المساكن وفتحاتها
تغطى بالمشربيات وأنواع الخرط المختلفة من الخشب ، وكل هذه
الوكالات بما يعلوها من رباع كانت للاستغلال وكانت موقوفة
على منشآت السلطان ، وعلى أعمال الخير ، وبعضها انشئ

خصيصا ليصرف ريعه في شراء قمح الدشيثة التي كانت ترسل
لفقراء الحجاز صدقة من السلطان ، وجلبها انشىء من مال
السلطان الخاص الذى تصدق به عقب عودته من تأدية فريضة
الحج . وقد انشىء منها الكثير ، وزال معظمها من الوجود .
بقى من هذه الوكالات والرباع بمدينة القاهرة وكالة
السلطان عند باب النصر ، وقد بنيت في رحبة جامع الحاكم بأمر
الله ، وذكر السخاوى أن دورات المياه بها كانت خلف بيت
خطيب المسجد ، وقد نقش على هذه الوكالة على ازار من
الخشب ما يفيد بوقتها لشراء قمح الدشيثة لفقراء الحرمين
الشريفين وقد أضفى عليها ذلك اسم وكالة الدشيثة ، وكان
المشرف عليها كاتب السر عبد العزيز الفيومى الذى أشار ببناء
مسكن علو قاعة الخطابة ليسكن به ، ولما انفصل من الخطابة زعم
أنها بنيت له ، وأفهم أنها انما بنيت سكنا للخطيب . وثمة وكالة
أخرى من وكالات السلطان مازالت قائمة بحى الأزهر أمام
الواجهة القبلىة للمسجد وتعتبر زخارفها من أعظم زخارف الحفر
على الحجر في العصر المملوكى .

ومن عمائر السلطان التى تدخل تحت نظام الوكالة والربع
بمدينة القاهرة الخان الذى أنشأه عند خان الخليلي ، وربع
الصوفية بالقرافة الشرقية ، والربع الذى أنشأه فوق باب الكباش
بعد تجديده والذى أوقفه على اقامة الشعائر ، وأشرف عليه

فائق المؤيدى ، والربع الذى جده بجوار المدرسة الجاولية
وقد هدم عند فتح الشارع ، وكانت عليه كتابات حفظت بمتحف
الفن الاسلامى ، وكان موقوفا على المدرسة الجاولية ، وقد
أنشأه من ربع الوقف ، وأشرف عليه الناصر الاخميمى أمام
السلطان . والربع الذى أنشأه بجوار جامع الروضة والقاعة
خلفه والدكاكين وجميعها بإشراف البدر بن حسن الطولونى ،
والربع تجاه جامع سلطان شاه (بشارع حسن الأكبر) أعلاه
المظهره ، والذى أشرف عليه الاستادار . كما أنشأ السلطان
عدة رباع وخان بالبندقانيين من أحياء القاهرة القديمة وكذا
رباعا بالزجاجين والخشابين من أحياء القاهرة القديمة كذلك ،
وكان المشرف عليها شاهين الجمالى ، وجدير بالذكر أن تلك
الرباع أنشئت ليصرف من ربعها على شراء الدشيثة . وأما
الربع الذى أنشأه عند قنطرة الأمير حسين (احدى قناطر القاهرة
على الخليج ، وكانت تقع بجوار متحف الفن الاسلامى ، فكان
المشرف عليه عبد الكريم بن ماجد القبطى كاتب السر . هذا وقد
أنشأ بالزجاجين من أحياء القاهرة القديمة ربعين متقابلين
وحوانيت ووكالة وغيرها وكان المشرف عليها جاثم دوادار يشبك
الدوادار .

أما القصور والمنازل فأنشأ منها الكثير كما جدد وأضاف
الكثير عليها أيضا .

بقي من قصور السلطان قصر كبير يطل على شارع باب الوزير وشارع سوق السلاح آل الى عائلة الرزار ومازال به باب عليه اسم السلطان وألقابه والقصر الثاني ما زال قائما خلف مسجد المارداني بحي الدرب الأحمر وتدل مساحته الشاسعة على ما كان عليه من عظمة وجمال وما زال اسم السلطان منقوشا على أجزاء منه وأهم ما في تلك القصور المقعد والحوش والحواصل المحيطة به والقاعات العديدة المعدة للسكنى وهذه القصور كان يسكنها السلطان وحريمه قبل أن يلي السلطنة اذ بعدها انتقل الى القلعة مقر السلطان القائم بالأمر .

ومما تبقى من قصور السلطان أيضا المقعد المجاور لمدرسته بالقرافة الشرقية والحواصل الواقعة أسفله وهو يكون جزءا من منشأة السلطان هناك .

ومن منشآت السلطان القصر الذي بدأ في انشائه في ذي القعدة سنة ٨٩٥ هـ على بركة الفيل ليكون مسكنا لابنه محمد وكان نزول ابن السلطان لذلك القصر لأول مرة في صفر سنة ٨٩٩ هـ .

وقد زاد وأضاف السلطان الى بيت أركماس الظاهري المظل على بركة الفيل ، الى بيت جرباش بالقرب من حدرة البقر (بشارع السيوفية) ، واقتطع منه مساحة بنى فيها رواقا ومقعدا ودارا لتكون بيتا للأمير ، وأشرف عليه الأمير جانم ثم شاوبك ،

والى بيت الطنبغا المرقبي بخط سويقة اللالا المطل على الخليج،
والى بيت برويك العمار المطل على بركة الفيل ، وجدير بالذكر
أن هذا المنزل كان يقع فى درب الخازن (نور الظلام الجالى) ،
كما كان مجاورا لبيت امامه البرهان الكركى ، والى بيت خيريك
من حديد المطل على بركة الفيل . وجدد بيتا تجاه السابق وكان
المشرف عليه الحاج رمضان المهنتار ، وبيتا بباب سر جامع موضوع
وكان المشرف عليه جانم ، وبيتا بسويقة العزى : (بحى الدرب
الأحمر) ، وكان يسكنه ابن الظاهر خشقدم . وأنشأ بيت
مقال بالأزهر ربعا وقاعات ، كما زاد فى بيت ابن عبد الرحمن
الصيرفى وبيت ناصر الدين بن أصيل تجاه جامع الأقرم وبيت
محمد بن المرجوشى .

أما الأسبلة وما يعلوها من كتائب فقد أنشأ السلطان
الكثير منها وتبقى بعضها بالقاهرة . والأسبلة عبارة عن حجرة
تعلو الصهريج الذى تخزن فيه المياه كل عام أثناء الفيضان ،
ويعلوها حجرات لتعليم الأطفال الصغار وكائنات الأسبلة اما ملحقة
بمبان مثل المساجد واما منفردة ، ومما تبقى من أسبلة السلطان
سبيله والكتاب الذى يعلوه والملحق بمدرسة السلطان بالقرافة
الشرقية وهو يعتبر من أبداع الأسبلة ، ومنها سنبل السلطان
الذى مازال قائما بحى الخليفة بالقرب من مقر الشرطة هناك
وكان موقعه قديما يقال له سويقة منعم ، وهو من الأسبلة

المنفردة أشرف على بنائه قانى باى قرا ويقال انه انشىء مكان
سييل أزاله السلطان معتلا بأنه كان معترضا الطريق ، ويعتبر
هذا السيل أروع وأحسن مثل كامل للأسبلة وقد نقشت عليه
كتابات بها اسم السلطان وتعتبر زخارف واجهاته مثلا رائع
لزخارف مباني الممالك الشراكسة ويعلوه حجرات لتعليم
الأطفال . ومن الأسبلة الباقية أيضا سييل السلطان بحى الأزهر
بجوار وكالته هناك وهو يقع فى زاوية الوكالة ولكنه لم يكن
ملحقا بها ويعلوه كتاب وتعتبر زخارفه مثل طيب لزخارف ذلك
العهد ، وعقب الفراغ من بنائه سقى السلطان الناس السكر أياما .
وهناك سييل آخر فى الزيادة القبلية لجامع أحمد بن طولون وهو
سييل منفرد أيضا ولا يوجد به كتاب .

كما أنشأ السلطان بمدينة القاهرة سييلا وصهريجا عند
قنطرة الأمير حسين وسييلا برباع الدجاجين وسييلا وكتابا
بالقرب من القشاشين (تحت الربع) ، وسييلا وصهاريج للمياه
بجوار الزدرخانه بالقلعة ، وسييلا بجوار باب القرافة (بحى
السيدة عائشة) هدم فى السنوات الأخيرة .

وأنشأ سييلا بجهة مقطع الحجارين بالمقطم بالقرب من
القلعة مازال قائما وهو المسجل خطأ تحت اسم قبة يعقوب شاه
المهندار ، ولهذا السيل أهمية خاصة ، اذ نقش على واجهته

انتصار جيوش مصر تحت حكم قايتباى على جيوش العثمانيين
وأسر قائدهم ، وهو من انشاء يعقوب شاه المهمندار •

وأنشأ خارج القاهرة سييلا بجوار جامع سلمون الغبار
وسييلا بجوار جامع القرية وسييلا بجوار جامع العباسة ، وسييلا
وصهاريج بالقرب من قنطرة المرج والزيات •

وأما أحواض سقى الدواب فقد أنشأ السلطان عددا كبيرا
منها ، والأحوض عبارة عن بناء مستطيل له ثلاثة جوانب وبه
حوض يملأ بالمياه وحتى تلك الأحواض لا تخلو من الزخرفة
والكتابات وقد بقي منها ثلاثة أحواض حوض بجوار مدرسة
السلطان بالقرافة الشرقية وكانت تصل اليه المياه من الساقية
المجاورة ، وحوض بجوار مدرسة السلطان بقلعة الكيش ، ولعل
النموذج الكامل من تلك الأحواض حوض السلطان بجوار
وكالته بالأزهر •

هذا وقد جدد وأنشأ السلطان بالقاهرة حوضان للجأولة
وحوضا بالخشابين بأشراف شاهين الجمالى وحوضا بالدجاجيين،
وأنشأ خارج القاهرة حوضا بالقرية وحوضا بالعباسة وحوضا
في المرج والزيات •

أما أعمال الري فقد اهتم السلطان قايتباى بإنشاء القناطر
والجسور وأنشأ عدة منها بالشرقية والغربية ومن تلك القناطر

قناطر الجيزة التي تم بناؤها على يد الأتابكي أربك ، وقيل ان
السلطان أنفق عليها نحو من مائتي ألف دينار . وأما القناطر
بشبرامنت بمحافظة الجيزة فقد بلغ قيمة ما أنفقه السلطان عليها
خمسة آلاف دينار ، وتم ترميمها على يدى الأتابكي أربك ،
بنى عندها رصيفا عاد بنفع كبير على المسافرين أيام فيضان
النيل ، وبنى السلطان لنفسه منظره وأنشأ حقولا على بركة
هناك ، وكانت من أعظم المتزهات . كما أمر السلطان بتجديد
قناطر أبو المنجا تم ذلك على يد البدرى حسن بن الطولونى
وعادت القناطر الى ما كانت عليه وكانت آيلة للسقوط وبلغ
ما أنفق على ترميمها حوالى سبعة آلاف دينار . وجدير بالذكر
أن اسم السلطان مازال موجودا على هذه القنطرة على لحدى
واجهتها بينما رنك (أى شارة) السلطان ببيرس الذى أسس
تلك القنطرة على الواجهة الأخرى وقد اختلف علماء الآثار فى
ماهية الأعمال التى قام بها قايتباى ومهما يكن من أمر فان أعماله
حافظت بلا شك على بقاء تلك القنطرة . كما جدد السلطان
قنطرة باب البحر ، ومقياس النيل .

وجه السلطان قايتباى اهتمامه للعمارة البحرية لما كان
يهدد البلاد من غارات الصليبيين ، الذين لم ينسوا ما قام به
المسلمون من تجمع أدى الى طردهم من آخر معاقلهم فى الشام
على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، بل وأخذ المسلمون يتوجهون

للقضاء على معاقلمهم فى البحر الأبيض المتوسط فكان الاستيلاء على جزيرة قبرص ومحاولة فتح رودس ، وكثيرا ما هدد الصليبيون السواحل المصرية ولم يتركوا فرصة مواتية الا واتهزوها لضرب الدولة المملوكية بغية القضاء عليها ، وقد اهتم سلاطين المماليك بتحسين الثغور والشواطىء ، وكان للكارثة التى حلت بالاسكندرية فى أيام السلطان شعبان بن قلاوون أكبر الأثر فى اهتمام السلاطين بتحسينها وتحسين دمياط ورشيد، ففى المحرم سنة ٨٨٤ هـ سافر الأمير يشبك الى ثغر دمياط وأنشأ على فم البحر الأبيض المتوسط عند برج الظاهر ببيرس البندقدارى سلسلة من حديد زنتها نحو من ٢٥ قنطارا من الحديد ، وكان لهذه السلسلة وجود فيما مضى ، فجددها الأمير يشبك وكان لاعادتها فائدة جلية ضد مراكب الفرنج . ومما أنشأه السلطان أيضا سور مدينة تروجه ، أما مدينة رشيد فقد أنشأ السلطان بها قلعة أطلق عليها اسم البرج مازالت بعض أطلالها قائمة حتى الآن ، وقد عرفت فى كتب الرحالة الأجانب باسم قلعة سانت جوليان أحد قواد الحملة الفرنسية الذى عهد اليه بحمايتها ، وفى أثناء ترميم تلك القلعة عثر القائد الفرنسى بوشار على حجر عليه كتابات بلغات قديمة عرف فى التاريخ باسم حجر رشيد ، نقل الى المتحف البريطانى بلندن وما زال معروضا به ، وقد ساعد هذا الحجر على حل رموز اللغة المصرية القديمة، وكان المشرف على انشائها مقل الحسنى الظاهرى جقمق .

أما مدينة الاسكندرية فقد حظيت بعناية السلطان وأنشأ بها قلعة أطلق عليها اسم البرج ، وتعتبر أكبر آثاره الحربية ، أمر السلطان بإنشائها عند زيارته للاسكندرية لأول مرة ، عند موقع الفنار القديم وأوصى بأن تستعمل أساسات الفنار القديم كذلك ، ثم زارها للمرة الثانية وعابن المبنى بعد الانتهاء منه ، وكان المشرف على عمارته البدرى بن الكويز والعلائى بن خاص بك ، كان المبنى متصلا بالشاطيء بواسطة ممر معقود ، ويشتمل على مسجد وطاحونه وفرن ومخازن للأسلحة ومقعد مطل على البحر لرؤية المراكب التى تدخل الميناء ، وكان يتخلل السور المحيط بالحصن فتحات للمدافع ، ويقال أن السلطان أثنق على بنائه أكثر من مائة ألف دينار .

وفى مدينة القاهرة جدد السلطان أسوارها وجدد باب القرافة ونقش اسمه عليه ، وحظيت القلعة بعناية السلطان فجدد الباب المدرج والأسوار وعندما أحرق باب السلسلة فى حريق عام ٨٨١ هـ سقط جزء كبير من حوائطه وقام قانصوه خمسمائة فى سنة ٩٠٠ بتجديد ذلك السور وأنشأ مقعدا مطلا على ميدان الرملة (صلاح الدين الآن) والمبيت وأقام حوله الأبراج . وعندما حاول الجلبان اغتيال السلطان أمر بتعليق حوائط المبيت ونقل المماليك من طبقة الحوش وسد بابها وهدم سلمها . ثم جدد السلطان الايوان الكبير بالقلعة وكان المشرف على الاصلاح

كاتب السر ابن مزهر والبدر بدر الدين بن الكوير ، ويقال ان السلطان أنفق في اصلاحه عشرين ألف دينار . وفي سنة ٥٨٩٩ هـ أصاب حواصل السلطان حريق . وجدد بالقلعة قاعة الدهيشة والحوش وأنشأ بداخله القاعات والمقعد وأنشأ فوق أبواب الحوش قصرا . وأصلح دور الحرم ومجرى المياه الواصلة الى القلعة . وجدد قاعة البحر ، وأنشأ بجوارها عدة حواصل .

اعمال قايتباي بالشام :

حظيت ولايات الشام برعاية السلطان قايتباي فأنشأ فيها العمار على اختلاف أنواعها ، وعمل على تحصين البلاد الواقعة على الحدود ، فأمر في شعبان سنة ٨٨٧ هـ بعمارة سور البيرة واعادته الى حالته الأصلية ، كما أمر في ربيع الآخر سنة ٨٩٤ هـ - باصلاح سور قلعة سيبس بعد أن هدمته الصاعقة . وفي مدينة القدس قام قانصوه اليحياوى الذى كان نائبا للشام ونفى الى القدس باصلاح عين ماء بها كانت معطلة مدة طويلة ، وأنفق عليها مالا كثيرا وعم بها النفع الكثير . أنشأ السلطان مدرسة جليلة بالقدس بها شيخ وصوفية ودرس وعين في مشيختها الشيخ كمال الدين بن أبى شريف المقدسى ، وأرسل السلطان القراء والوعاظ للقدس ليقوموا وليمة عند افتتاح مدرسة السلطان هناك . وبنى بالقدس سيلا له قبة . وأمر باعادة بناء كنيسة

اليهود بالقدس الشريف بعد هدمها سنة ٨٧٩ هـ ، وعرض
السلطان نفسه لتقد المعاصرين بسبب ذلك ، وأمر بإنشاء جامع
في غزة •

وأوفد السلطان القاضي شرف الدين الأنصارى الى الكرك
لعمارة عين يصل منها الماء الى الحاج ، وقيل لاصلاح الكرك
وقلعتها •

وأنشأ مدرسة في دمشق ورسم الجامع الأموى وأنشأ
دكاكين ورباع بها •

وأنشأ في حلب الكثير من العماير وقد نقش اسمه على
الكثير منها من ذلك سور حلب وأبوابه وقلعة حلب وسبيلا
« برد بك بن عبد الله » تاجر الممالك السلطانية في الرضائية
وفي جامع الشرف وغيرها •

كما نقش اسمه على الكثير من الآثار التي أنشأها رجال
الدولة في جميع انحاء الشام •

اعمال قايتباى بالحجاز :

اعتنى السلطان قايتباى عناية فائقة ببلاد الحجاز تتناسب
مع قدسية تلك البلاد وليثبت أن سلطان مصر جدير بلقب
« خادم الحرمين الشريفين » • ومن أعمال السلطان بمكة ،
اصلاح عين عرفات والانتهاء منه في شعبان سنة ٨٧٥ هـ بعد أن

انقطع ماؤها نحواً من مائة عام ، كما أصلح فساقها ، وأمر
السلطان بترميم قبة عرفة وتبييضها • وأنشأ مدرسة عظيمة عند
باب السلام وقرر بها صوفية وتداريس وفقراء وخزانة للكتب
والربعات •

أمر السلطان بإصلاح مسجد الخيف وبنى به قبتين أحدهما
على المحراب النبوي والثانية على المحراب الثاني ، وبنى منازحته
وبوائكه الأربع والبوابة وبابى المسجد ، وبنى بجواره سيلا
فوق الصهريج •

أما مسجد تمرة المعروف بالخليل إبراهيم فأنشأ فيه
بأئكتين بالجهة القبلية لتكون ظلّة للحجاج وبنى قبة فسوق
المحراب ، وحفر بوسطه صهريجاً وبنى المصطبة الموجودة في
وسطه •

وأصلح سلالم مشعر المزدلفة •

وعمر بركة خليص وأجرى إليها العين •

وأصلح مسجد بركة خليص •

وعمر سقاية العباسي •

وأصلح بئر زمزم والمقام وعلا مصلى الحنيفة •

أنشأ رباطاً للفقراء والطلبة بجوار مدرسة باب السلام ،

وكان يفرق الخبز والدشيشة كل يوم •

أمر بوضع منبر بالمسجد الحرام بدلا من المنبر الذي أتلفه
السنبل •

• أنشأ عدة رباع بمكة •

كان السلطان يرسل كسوة الكعبة ومقام ابراهيم وأقام لها
احتفالا عظيما في رجب سنة ٨٩٦ مع الحبل وكان حاضرا رسول
سلطان بنى عثمان •

• أما المدينة المنورة فقد أنشأ السلطان بها مدرسة كان
المشرف على بنائها الخواجه شمس الدين بن الزمن ، وأخذ
على السلطان فتح شبايك تلك المدرسة على الحرم النبوي وأفتى
العلماء بأن ذلك لا يجوز فإن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم
وهو ميت كحرمة وهو حي •

وصنع في عهده مقصورة جديدة من النحاس للحجرة
الشريفة وعرضها السلطان في شعبان سنة ٨٨٨ هـ ونصبها في
الخوش السلطاني بالقلعة وقيل ان زنتها أربعمائة قنطار من
الحديد وقد حملت الى المدينة على سبعين جملا مع شاد بك
الذى عين قائدا للجند بمكة ومعه خمسون مملوكا ، وأرسل
معه مصحفا كبيرا حمل على جمل بمفرده بخط شاهين الثورى
الذى مات ولم يكمله فأكملة الشيخ خطاب ووضع بالحجرة
الشريفة • أرسل السلطان كما أرسل السلاطين قبله الكثير من

الهدايا من شماعة وقناديل وطرف وغيرها وقد تجمع منها عدد كبير بجانب أموال النذور حتى طمع أمير مكة في الحواصل التي كانت محفوظة فيها فسطا عليها واستولى على اثني عشر ألف دينار وعدة قناديل من الذهب كانت معلقة بالحجرة الشريفة وهرب الى العراق *

جدد السلطان المنبر والحجرة الشريفة وما جاورها والمصلى النبوي والمحراب العثماني وأنشأ مئذنة فريدة • ورتب للفقراء والمنقطعين الكثير من الخيرات من ريع منشأته في القاهرة والتي أوقفها عليهم *

تعرض المسجد الشريف لصاعتين في سنة ٥٨٨٦ و ٥٨٩٨ وأمر السلطان باصلاحه اصلاحا شاملا ، وأنفق على ذلك الاصلاح أموالا طائلة •

عمائر رجال الدولة في عهده :

انتقل حب السلطان وولعه بالعمارة الى أمراء دولته وقد أنشأوا الكثير ، تقتصر على سرد ما أنشئ في مصر منها وما زال قائما حتى الآن :

- مسجد المرأة (فاطمة الشقراء) بشارع تحت الربع •
- مسجد تميم الرصافي بحي السيدة زينب •

- مسجد وسبيل تمتاز الأحمدى بحى السيدة زينب
 - مدرسة وقبة جانم البهلوان بأول شارع الروحية
 - مدرسة أبو بكر مزهر بالخرنفس
 - مسجد وحوض قجماس الاسحاقى بالدرب الأحمر
 - مسجد السلطان أبى العلا
 - تكية أحمد أبوسيف بالقرافة الشرقية
 - زاوية فاطمة أم خوند بباب الشعرية
 - مسجد بدر الدين الوفائى بشارع الزرايب بحى الخليفة
 - مسجد أزدر بشارع صلاح سالم بجوار مجرى العيون
 - مدرسة الأمير أزبك اليوسفى بحى السيدة زينب
 - ضريح الشرفا بالقلعة
 - مقعد الأمير ما ماى المعروف باسم بيت القاضى بحى
الجمالية وهو بلاشك متخلف من قصر كبير كان هناك
 - وهناك آثار لأمراء دولته ورجالها عفت الأيام على آثارها
- فيها :

جامع أزبك من ططخ بالأزبكية ، وحوضه وسيله بطريق
بركة الحاج ، حوض وسبيل وبستان سيدى ابراهيم بن على بن

عمر المتبولى وكان أحد الصالحين المعتقدين لا ترد شفاعته عند
السلطان والأمراء •

ولا تقل المباني التي أنشأها رجال الدولة في عصره عن
مباني السلطان فقد كان يتعهدا برعايته ويساعدهم على انجازها
على وجه يليق بمكانة القاهرة وسلطانها المبجل •

من المراجع

١ - المخطوطات

- ١ - ابن أجا (شمس الدين قاضي العسكر)
 - تاريخ الأمير يشبك الدوادار ورحلته الى آسيا الصغرى
- ٢ - الجوهري (نور الدين علي بن داود)
 - أنباء الهصر في أبناء مصر
 - (نشر عبد الرحمن محمود عبد التواب « تحت الطبع »)
- ٣ - الكسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)
 - (أ) تاريخ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري
 - (ب) كوكب الروضة

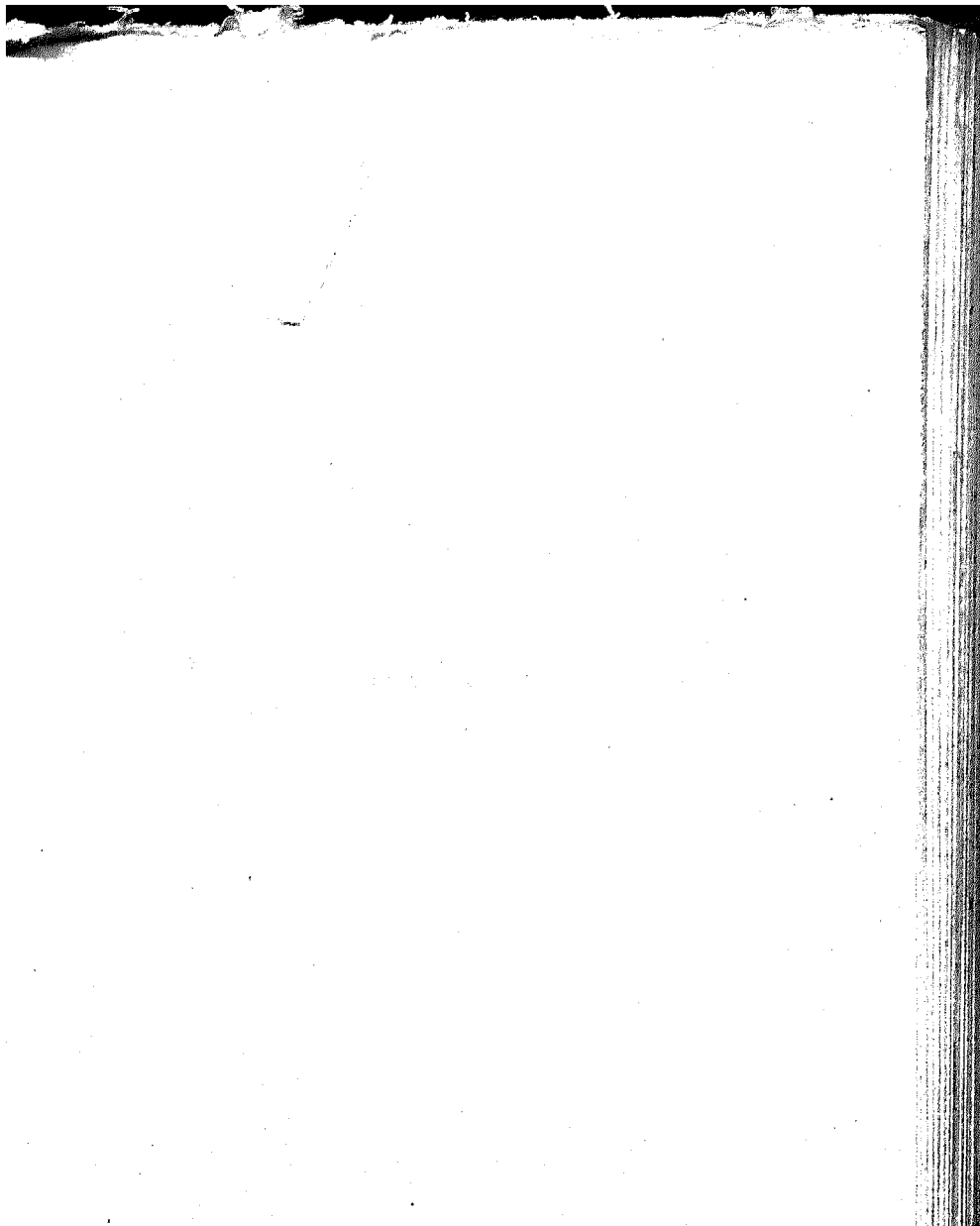
٢ - المطبوعات

- ١ - ابن الجيعان (شرف الدين أو البقاء يحيى)
 - القول المستطرف في سفر الملك الأشرف
- ٢ - ابن العماد (أبو الفلاح يحيى الحنبلي)
 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب
- ٣ - ابن العيرونسي (عبد القادر)
 - النور السافر
- ٤ - الفزى (نجم الدين محمد بن أحمد)
 - الكواكب السائرة بمناب المائه العاشرة

- ٥ - ابن اياس (محمد بن أحمد)
 بدائع الزهور فى وقائع الدهور .
- ٦ - السخاوى (أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد)
 الضراء اللامع فى أهل القرن التاسع .
- ٧ - السيوطى (جلال الدين بن عبد الرحمن)
 (أ) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله
 (ب) حسن المحاضرة فى تاريخ ملوك مصر والقاهرة .
- ٨ - دواج (الدكتور أحمد)
 (أ) جم سلطان (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية)
 (ب) رسالتان بين سلطان ملوہ وقايتباى (مجلة معهد المخطوطات)
- ٩ - زامباور
 معجم الأنساب والأسرات الحاكمة .
 (الترجمة العربية)
- ١٠ - زيادة (الدكتور محمد مصطفى)
 نهاية سلاطين الممالیک (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية)
- ١١ - طرخان (الدكتور ابراهيم على)
 مصر فى عصر دولة الممالیک الشراكسة .
- ١٢ - المقدسى (مجير الدين العليمى الحنبلى)
 الانسى الجليل بتاريخ القدس والخليل .
- ١٣ - مرعى (يوسف بن أبى بكر بن أحمد المقدس)
 نزہة الناظرین فى تاريخ من تولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

٤ - المراجع الأجنبية

1. **Lane-Pole, S. :**
A — A History of Egypt in the Middle Ages.
B — Sarasenie Art.
C — The Story of Cairo.
2. **Syke, Sir, P.M. :**
History of Persia.
3. **Wiet, G. :**
Deux Princes Normans à la Tour d'Egypte
B.T.E., Tome 20 (Session 1937-1938), pp. 137-150.



فهرس

- ٥ * * * * * - مقدمة
- ٧ * * * * * - الفصل الأول : السلطان
- ٩٥ * * * * * - الفصل الثاني : أحوال البلاد الداخلية
- ١٣٥ * * * * * - الفصل الثالث : العلاقات الخارجية
- ١٧٧ * * * * * - الفصل الرابع : أعمال العمران



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Organización General de la Biblioteca de Alejandría

من مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٨/٣٩١٠

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٥٦١ ٧





الجمعية المصرية لدراسة اللغة العربية

20

مطابع الجمعية المصرية لدراسة اللغة العربية

٥٥ قرشاً